غريب عسقلاني

جفاف الحلق

رواية

وعيت على الدنيا وأنا أعاني من جفاف في الحلق ومرارة في اللسان، واعتقدت في طفــولتي الأولى برواية جدتي لأبي، عن مجيئي إلى الدنيا على عطش بعد أربع بنات، انتظرن وأمــي سنداً يطرد شبح الضرة الذي كان يحوم في الدار...

وقبل أن أرتوي من حليب أمي، هاجروا بي، وأنا لم أبلغ عامي الأول، وفقدوا مع ما فقــدوا شهادة ميلادي، واتفقوا على عدم تمكنهم من غسل قدمي في مقام (الشيخ عوض) على عتبــة بحر عسقلان، ولم يعلق الشيخ أبو صبحة (الذي يأكل القش ويهرس الفخار والزجاج) حجابه فوق قلبي، إذ حال توتر الحال والأحوال دون دق طبله ونقر رقه ودفه، وإشعال حلقة الــذكر في باحة المقام، ولم يلعب الدراويش بالسيوف والأقواس والسنج في حواري المجــدل علــى عادتهم في موسم الحسين وعرس وادي النمل...

فالساحات والمساحات كانت تحت تصرف الجيوش المصرية, التي اتخذت من مبنى البلديــة مقراً لقيادتها، وأخذت على عاتقها تحرير البلاد والعباد مــن الإنجليــز الملاعــين واليهــود الأنجاس، وحظرت على الناس الاقتراب من الشاطئ، حيث أقيمت المواقع والدشم، ونــصبت المراصد لرصد تحركات الأعداء، ودبيب النمل في زمن الحرب..

ولحرماني من الحجاب والتعويذة والرقية تفرغت أمي لإرضاعي مذعورة، تبصق في عبهــا كلما وقعت عليّ عين مدوّرة حاسدة، مثل عين جارتنا العاقر، وتصب جام غضبها على اليهود والإنجليز جهاراً، وعلى العرب في سرها، لأنهم قطعوا السبل على الدراويش، وأفسدوا موسم وليّ الله فهزموا، وبلبلوها في مواجهة عللي وأمراضي، والحمى التي تزورني ليلاً، وتورثني مغصاً وإسهالاً في النهار، تستنجد وتستجير بأبي صبحة (الذي توزع مع الناس في الهجرة) ولا من مجيب .

وعندما درجت مع أترابي في الحارة، بطحوني، فاكتشفت نحافة عودي، وأيقنت أن المكابرة تؤدي إلى الهلاك، فبحثت عن أولاد الأعمام والأخوال والأقارب، وعلمت أنهم تفرقوا في مواقع وحارات بعيدة..

واستأنست بكتف صابر الذي يأتينا جائعاً مخربشاً ممزق الثياب، تطعمه أمي، وتدخله الحمام عنوة، وتلبسه ما تيسر من ثياب قديمة احتفظت بها من فوائض صرر (بقج) الوكالة..

أتشبث بكتفه وأنا السند المأمول، وأفتقده إذا طال غيابه، أسأل، فتحدثني أمي عن جوع وعطش وعشق بعيد، ومأذون وشهود، ثبتوا أبوة جنيناً يرفس جلد بطن أمه..

يصعد الجفاف إلى حلقي، وتقبض المرارة على لساني، أرهف السمع، وأتحول عن رواية جدتي إلى رواية أمي التي فطمتني بعد أن هجر الحليب صدرها خلال مشوار المطاردة من المجدل إلى غزة، على ظهر الحمارة القبرصية العالية الثكلى (بعد أن هج جحشها الأبيض ويمم صوب البحر)

تؤكد أمي أن الحمارة صامت وظلت تبكي طوال الرحلة, وتعتقد أمي أن حليبها (شرد) من صدرها مع آخر قطرة ماء تزودت بها من جابية مقام (الشيخ نور الظلام)، الموصوف ماؤه للمرضعات، لما كان يشاع عن سر الولي المذاب في ماء الجابيه ،وكراماته في إدرار الحليب الزلال الصافي الشافي من العلل والأمراض، تقول أمي أنها فطمتني بعد أن عافت معدتي حليب وكالة الغوث المجفف المنزوع الخي، والمتاح الوحيد في تلك الأيام المنزوعة البركة والرحمة، فتشكلت رفيعاً مثل مصران الجائع ...

أدور حول أبي الذي اعتصم بحرفته الأولى، ونصب نوله ووصل الليل بالنهار مدفوناً في جورة النول خلف خيوط السداة (يترسك) تساعده أمي خلف دولابها تعبيء فوارغ مواسير اللَّحمة...

وتدور مع لفات شلخات الغزل على محيط الطيار، يفرخان رقعة القماش القطنية المطلوبة في زمن الهجرة, وقد استبد بالناس عناد التمسك بالأنسجة الشعبية والتلفع بالأردية الرخيصة، في غياب الأقمشة البديلة، لأن الإستيراد من مصر لم يكن قد وجد سبله المنظمة إلى القطاع.

ولم يمض طويل وقت حتى استعاد أبي لياقته وحيوية جيوبه، فتجاوز وقته ،وجمع قروشه على قروش خالي وجدي لأمي، وأصبح صاحب أنوال ودكان وتحول إلى التجارة، يعمل عنده أجراء من أهل المجدل، في الدار الكبيرة على صدر طلعة الجرجاوي تحت كتف مدرسة صلاح الدين الأيوبي..

نطل منها على بيارة أبو راس، الممتدة بين ساحة الشوا وسدرة الخروبي، ومن براندة الدار تلوح لنا حارة التفاح بأزقتها ومنعطفاتها حتى بركة " قمر " شمالاً وحارة المشاهرة غرباً.

وفي الدار الكبيرة ، الدار الفوقا ، وهي مخصصة للسكن والمعيشة وتتألف من خمس حجرات ولوانين تصل بينهما براندة عريضة مبلطة تفتح عليها أبواب الحجرات، نهبط من الدار "الفوقا" على درجات حجرية إلى الدار "التحتا"، حيث أقيمت القاعة بسقفها الزينكو وحوشها الترابي...

عشنا نحن الصغار في القاعة بين الأنوال والعمال نجمع فوارغ المواسير لنساء الدار اللواتي يقطعن نهارهن خلف الدواليب للف خيوط اللحمة, وتوفير المواسير لتلقيم المكاكيك التي لا تستقر تحت دفع اللطاشات المجنونة بترسكات (دفع) أقدام العمال على دواسات الأنوال الجرارة، أو نقرات أصابع عمال الأنوال اليدوية على أبواز المكاكيك الصغيرة، وكان على كل امرأة (مموسرة) أن توفر ما يُشغل أربعة أنوال لاسكات خالي الذي يهتاج إذا أعلن أحد العمال عن نقص المواسير في جعبة نوله..

وغالباً ما كان هياج خالي يستفز جدي في جورة نوله، فيثور من القاعة منتصراً للنساء:

– مالك الدنيا أكلتك.. ايش بدك منهن ، خليهن يشوفن غسيلهن وطبـيخهن، كفايـة الواحـدة ملاحقة على أربعة فحول.

وارتبطت حياتنا بالقاعة، والقاعة في عرف أهل المجدل هي ورشة النسيج اليدوي تواضـعاً أمام مصانع النسيج الآلية، مثل مصنع "المنار" الذي يملكه صديق أبي الأفندي الأسمر الضخم "جعفر فلفل" والذي يعزو جدي فشله إلى كونه أفندياً يتكلم أكثر مما يعمل، ويلبس البنطلـون، فالبنطلون والنول لا يلتقيان, والأهم من ذلك أنه ليس مجدلياً...

لأن حرفة الخيوط والنسيج وقفت على أهل المجدل منذ أيام النبي شيت، النبي الذي سـمعت جدي أكثر من مرة يعاتبه ويتمرد عليه ويلعنه، ويحمله مسؤولية ربطه في جورة النول منـذ لبس الشروال, وربط حبل دكته حول وسطه، وبحثتُ عن النبي شيت دون جدوى، فاعتمدتـه على إيمان جدي نبياً ورسولاً للغزل والنسيج ومهندساً أزلياً للنول...

هبط في المجدل وفرّخ فيها أولاداً وأحفاداً، ولازمني الإعتزاز بانحداري من سلالة نبي يعود إلى سيدنا آدم، الذي نسخ أمنا حواء من ضلعه، واعتقدت أن الرجال في المجـدل ينـسخون زوجاتهم من ضلوع جنوبهم ليقعدن خلف الدواليب فيما هم يمتطون الأنوال، ويغطسون فـي جوّرها.(حفرها)

ولأنني من سلالة شيت المجدلاوي كنت محظياً عند الجارات، يتوددن لي، فأم على الجرجاوي تنفحني بيضة مشوية كلما أوقدت طابونها، وأم فرهود تحشو جيوبي بقطين الجميز، فاسـرق لهن ما يطلبن من خيوط الحياكة والرتق والتنجيد من بقايا الخصلات الفائضة عن الـسداة، أو أعقاب المواسير..

وعند أولاد الحارة كنت المصدر الوحيد لقصبات "البوص" والخيوط اللازمة للطيارات الورقية (الأطباق)...

فقد كنت أغتنم أيام السداة في صباحات أيام الجمع، حيث ينصب العمال العدة في الطريق بين الساحة والسدرة، وكان علينا نحن الصغار تزويد العمال بالشاي وطعام الإفطار وجمع فوارغ البوص التي تلفظها مرادت الجاغات، وتلقيم المرادن بمواسير بكر، نخبئ أعقاب المواسير بما عليها من خيوط منشاة, وإن لم تتوفر نقوم "بنفل" مواسير وخربشتها، فيلفظها العمال مع العوادم ،لتسلّكها النساء على الدواليب، وتلفها من جديد للمسدية الثانية.

أما عيد باب الداروم (خميس البيض) فهو يوم زهوي وحنجلتي وخيبتي وقلة حيلتي أيضاً، في العيد تتفنن نساء الدار في لف خيوط الحرير الفائضة عن حواشي المقاطع (قماش الثوب المجدلاوي) حول البيض المسلوق، فتحل الخيوط ألوانها على قشور البيض تشكيلاً بديعاً تعكس ألوان مقاطع الجنة والنار، والجلجلي، والبلتاجي، وأبو مئيتن والمحيَّر، بيضتي الملونة تبهر أولاد الحارة ،وتثير غيظهم وغيرتهم، فهم لا يمكلون من وسائل التلوين غير قشور البصل وقشور الرمان المجففة، وفي أفضل الأحوال نوار "العصفر" ..

ما أن أهبط إلى الحارة حتى أعود مع قلة حيلتي، وهزال عودي أنزوي متحاشياً أخواتي الأربع، وأخي الرضيع (الذي ولد في الدار الكبيرة) لا أستجيب لدعوات هيجر للعب في الليوان..

أنا السند المكسور والمبطوح في الحارة، أتمنى لو كان صابر معي في الحارة، حتى لا يكسروا بيضتي، ويشوهوا قشرتها، ولا يتركوني ألا وقد قضموا حشوتها ليتأكدوا من تشابهها مع حشوات بيضاتهم البصلية والرمانية، يصعد الجفاف إلى حلقي ،وتتركز المرارة في لساني، لا يعصمني غير حضن أمي التي تكون قد احتاطت للأمر وخبأت بيضة احتياطية..

- ولا تزعل أنا شايلة لك بيضة الديك أم صفارين

هو الديك بيبيض؟.

– مرة واحدة في السنة، ليلة باب الداروم يهدي بيضته للولد الشاطر .

أزهو ببيضة الديك على أخواتي وبنات خالي ، أمارس هيبتي على هيجر الضاحكة الضحوكة أم العيون الزرق ، أخربشها فتضحك ، أختبر فتوتي الطفلة ، أبطحها وأضربها ..

وأفوع مع تحريض جدي الملقوح على فرشته أمام الليوان يعجعج على غليون البوص دخاناً عربياً أخضر جافاً.

– أيوة يا سيد أشكمها من اليوم عشان تحسب حسابك بكرة.

تسحبها أمها بعيداً عن جوري وفجوري ، تقرصها أسفل بطنها

– بيضربك وتضحكي له؟! من اليوم موليّه وساكتة يا هبلة !!

يرشقني خالي بطرف عينه ، تتضخم كفه الغليظة في عقلي تسد عليّ حيز المكان ، مـذعوراً أنزوي خلف جدي ، أختفي في ظلال سحابة دخان الغليون ..

ترتخي قبضة خالي ،يعود إلى برميل البوش أو القصرة، يدسني جدي في حـضنه ،يـشعلل رعونتي ، يحرضني حتى يسمع خالي.

– أيوة يا سيد أشكمها وخليك جدع اوعك تخـــذل وتطرى عند دلع النســـوان.

جدتي تتدخل قبل أن يتمادى جدي:

–أُسكت يا اختيار وكفاية تلقيح كلام ع الفاضي والمليـان.

- 2 -

من روضة الشيخ فرج خلف خرابة أبو الروم، إلى المدرسة الهاشمية في أول طلعة البوابة الشرقية للمدينة, المفصولة عن الشجاعية بخط سِكة الحديد ويافطة مثبت عليها سهم تشير غرباً (إلى غزة الجديدة) عند تقاطع السكة مع الأسفلت نتفرج على المحولجي وجرسه النحاسي وناقوسه المضاء في عز النهار، يتسع فضاء الدنيا أمامنا، نقطع ساحة الشوا، نستنشق رائحة الخبز ويانسون القرشلة المنبعثة من فرن (أبو الخير) يلوح لنا الصناقور مشرعاً إلى السماء، ننعطف إلى مقام الشيخ بشير، ونأخذ طريقنا إلى مقبرة أم مروان (الشهداء) نتسلى مع عنتر الذي يتجول عارياً بين القبور، أسماله البالية بالكاد تستر عورته، ونتحاشى الاقتراب من خص أبي صبحة في زاوية المقبرة...

نجمع بذور الخروع الجافة من الشجيرات المنتشرة حول القبور، نصطاد الجنادب من قواعد الصبار وعوسج الأسيجة، لنطلق سراحها في الفصل، أو نسقطها في ساحل أحد التلاميذ في حصة التربية الدينية، مستغلين طيبة أستاذنا الشيخ الصوالحي، وضعف بصره، نراوغ عنتر الذي يفتشنا، ويصادر ما اصطدناه من جنادب وجراد أحمر، يلتهمها حية، ويستحلب حشوتها اللزجة على طرف لسانه، يطلق ضحكاته الحادة مثل مواء القطط المفزوعة...

في الفترة المسائية، فصلنا الدراسي خيمة جرس كبيرة، زرعت أوتادها في ساحة المدرسة، وعرفنا من الأساتذة، أن عددنا فاض عن سعة المدرسة، فأضافت وكالة الغوث فصلاً مؤقتاً، بعد أن تبرع المعلمون بإضافة جدول دروسنا على جداولهم، وفي الحارة توزعنا إلى فريق صباحي يضم أولاد المواطنين يتبعون التعليم الحكومي، وفريق مسائي يضمنا نحن أولاد اللاجئين في رعاية وكالة الغوث، واعتقدنا أن الحكومة والوكالة قد ورثتا المدرسة عن جدنا هاشم بن عبد مناف، وامتثلنا للقسمة مرغمين، ولم نعد نلتئم لمواجهة أولاد الحارات المجاورة في لعبة العسكر والحرامية، والعرب واليهود إلا في أيام الجمع والعطلات الرسمية المشتركة...

وحيرني ابن حارتنا مسعود الخروبي، المواطن الغزي الذي يدرس معنا في الفريق المسائي، إلى أن حل أبي اللغز، وأخبرني أن أبا مسعود كان يعمل عتالاً في ميناء يافا، ويسكن مع زوجته في حارة "الجبالية"، وعندما هاجر الناس عاد إلى أهله وبيته، ولم يعد إلى فاخورة أبيه، وسجل مع اللاجئين...

وأصبح غزياً يافاوياً ببطاقة زرقاء، يتسلم عليها حصص الإعاشة، ويحافظ على شخرته الغزية الأصلية الطويلة، يسحبها من حلقومه لدرجة السعال، ويبهدل زوجته، ويدقها على لوح صدرها كلما ضبطها تتحدث باللهجة اليافاوية تدللاً وتغندراً على نساء الحارة الغزيات أو المجدليات القابضات على لهجة عسقلان المتميزة الصعبة على مسامع عباد الله الآخرين، لافحة رؤوس وقلوب الشبان الفائرين..

بعد الهجرة أعلن أبو مسعود كراهيته للفخار وطينه ودواليبه وشحبار أفرانه، واعتمد على كتفيه وزنديه عتالاً في السوق، يرى ما يرى من عباد الله، ويتحسر على الأيام الخوالي، ويغار على زوجته الشابة من رياح الدلال اليافاوي، وقد ازدحمت المدينة بأخلاط الناس من القرى والمدن ومضارب البدو..

وأم مسعود الضاحكة يسطع سنها الذهبي في زاوية فمها تلاعب ضوء الشمس، وفي يوم اشتعل غضبه، وحلف عليها يمين الطلاق أن لا تبقى في داره مع سنها، واصطحبها إلى الحلاق العفيفي جارنا في الدكان، وقلع سنتها الصفراء اللامعة ميراثها من حارة الجبالية، وصارت تغلق فمها كلما داهمتها الضحكة..

تزوّر وتجحظ عينيها في وجهها، وتغيب في نشيج مكتوم، أصبحت حديث الجارات.. وفي يوم مازحه أب :

– ليش عملتها يا "أبو مسعود"؟

– في يافا كل النساء لهن أسنان ذهبية، ويضحكن في وجه الشمس.. كانت أيام راحة بال وعافية وشباب، والله بعد ما خطبتها اشتريت جهازها من شارع اسكندر عوض..

وأخذتها إلى الخواجة "مانولي" ولبست سنها ذهب عيار 24 قيراط..

وين راحة البال علشان تضحك على الفاضي والمليان..

وكمان نسيت حالها وعاملة يافاوية بتتجعص على عباد الله !!

هوايتنا وضع المسامير على قضبان السكة الحديد ، يمر عليها قطار البضائع يفردها ويفلطحها، نشكل منها مناخيز وحربات وسكاكين، نشحذها على حجارة الصوان في ضريح شمشون الجبار الراقد أسفل سور مدرسة الفلاح المقابلة لمدرستنا، نتسلح بما شكلناه من أسلحة وأدوات مع سلاحنا الأهم البطاقات الزرقاء نلّوح بها لأولاد المواطنين في طريقنا إلى مراكز التغذية الإضافية...

نزدرد الوجبة الساخنة على عجل ونخرج إلى الطرقات بقرون الموز أو حبات التفاح والبرتقال، ونصاب بخيبة أمل إذا كانت التحلية مهلبية أو أرزاً وحليباً ،إذ من المفروض أن نلتهمها داخل المركز في أطباق صغيرة من التوتيا، ولا نجد ما نتباهى به أمام الأطفال المتجمهرين عند بوابة المركز..

وكان مسعود الخروبي الغزي في الحارة، واليافاوي في المركز والمدرسة، يلف قطعة اللحم خاصته في ورقة يحضرها سلفاً، ويدسها في شنطته، ليقتسمها في البيت مع أخيه الصغير..

وفي يوم قدموا لنا وجبة خضار بدون لحم، فاصطحبني معه إلى البيت شاهداً، حتى لا يتهموه بأنه استأثر باللحم دون أخيه (لأن بطنه واسع ولا يشبع كما تتهمه أمه) ولم أكن أدري أن شهادتي ستجر عليّ وعلى أهلي الوبال ..

فقد تقدم أبو سعود بشكوى لمدير الوكالة أسفرت عن طرد مسؤول المركز بتهمة سرقة اللحم المخصص لوجبة التغذية، واستدعينا مع أولاد آخرين للشهادة في مركز الشرطة..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد لاحقنا الموظف المطرود عرفياً لأننا تسببنا في خراب بيته، وجوع عياله، وفي مجالس العرف والعادة جرجروا أبي بين دواوين ومقاعد التفاح والشجاعية ، أسفرت أن توجه أهل الخير لمدير الوكالة واسطة لإعادة الرجل.

وفي تلك الأيام تميزنا بقدرتنا على التمارض، والرفس بالأيدي والأرجل، وإخفاء الشواحيط والأحذية والكتب والدفاتر، حتى نتغيب عن المدرسة برغم ما يترتب على ذلك من علقة ساخنة على الأيدي "ومدة " على الأقفية...

نتشبث بذيول أمهاتنا يوم تسليم حصص الإعاشة، نملأ جيوبنا بالتم، ونلحس ما تيسر من سكر البنجر الأحمر الرطب، نعتلي أكياس الدقيق فوق الكارات، ويوم تسليم بقج الملابس شتاءً نقيم كرنفالاً بما نرتديه من ملابس لا نعرف إذا ما كانت للصغار أو الكبار، وما لا نقدر على تمييزه إذا ما كان من أشياء الأولاد أو البنات خاصة إذا تعلق الأمر بالأحذية أو الكنزات الصوفية والمعاطف والجاكيتات.

حول المجامر، نحدق في الجمرات المتوهجة، ونغفو على حكايات الآباء والأمهات والجدات عن الغولة، التي كانت تسكن بلادنا البعيدة، وما زالت تفرخ أولاداً وأحفاداً تسبغ عليهم كل ما هو مرعب وحقير من الصفات..

فنسحب الحكايات معنا في أحلامنا، نختزن آهات الألم والحسرة على بلاد ضاعت، كل الناس فيها أغنياء، وكل الرجال أعفياء ،وكل النساء جميلات فاتنات عاشقات "وسقى الله أيام زمان" .

نشتاق ليوم العودة الموعود، أعتقد أن يوم العودة وثيق الصلة بصديقي عودة خليل عودة المجدلي مثلي، وأعتقدت أنه الأحق منا جميعاً بالعودة التي يعرف دروبها عن جده عودة...

لا يثنيني عن اعتقادي معلم الحساب الذي يشفشف كفيّ عودة بالخيزرانة حتى تصبحا في لون حبة البندورة المفغوصة، يفور دمه القليل على جلده الأبيض الرقيق، تفز عيناه ،تبقان دمعاً مثل حنفية، وقبل أن يفهق يتوقف الأستاذ عوض عن ضربه..
يداعبه فاقداً الأمل منه:

– والله لن تفهم الحساب يا عودة حتى يوم العودة .

وكنت أتخيل يوم العودة، فتبرز أمامي معضلة موقعه بين الأيام، فهو بلا شك يختلف عن أيام الأسبوع السبعة، ووصلت إلى حل مريح مفاده أن أسبوع المواطنين سيظل سبعة أيام، أما أسبوع اللاجئين العائدين فيكون ثمانية أيام يبدأ بيوم العودة ولا يتعارض مع يوم الجمعة الذي سيبقى نهاية الأسبوع، ليتيح لكل الناس صلاة الجمعة...

وكنت أوغل في التوصيف، فأرسمه يوماً محايداً تختفي فيه المواعيد والمواقيت ليس فيه ليل ولا نهار، ولا ينتمي إلى نور أو ظلمة ، ولا يخضع لصيف أو شتاء، لأن الله سبحانه وتعالى سيخلقه خلقاً مختلفاً..

وبانتظار يوم العودة تعزز اعتقادي بأن جدنا هاشم بن عبد مناف صاحب مدرستنا يرقد حياً في الأرض السابعة، يغفو صباحاً ولا يكترث بأبناء المواطنين الذين لم يغادروا بيوتهم وأراضيهم...

www.alkottob.com

ويصحو قبل الظهر يسجل علينا نحن اللاجئين حسناتنا وسيئاتنا ثم يرفعها إلى حفيده الرسول الكريم الجالس على كرسيه في السماء السابعة، شفيعنا نحن عصافير الجنة، وتسابقنا إلى حصاد الحسنات وحفظنا نشيد العودة، والكرمل المعطر، والبرتقال المزهر، وما بنى أجدادنا قبل أن نتعرف على الأبجدية، وذرفنا دموعنا مع هارون هاشم رشيد ، قبل أن تذرف فيروز دموعها، وتساءلنا قبل أن تتساءل، لماذا نحن يا أبتي لماذا نحن أغراب؟

فقام أبي إلى صندوقه (لم يكن أبي الذي صار تاجراً قد امتلك خزانة ملابس حتى لا يبتدع عادة اختفت من بيوت اللاجئين، وربما لأن قوانين الدار الكبيرة والمال المشترك المشاع يحتم عليه توفير خزانة لكل حجرة من حجرات الدار، مما يرهق ميزانيته...)

وسحب البندقية الألمانية من لفافتها، ومعها ثلاثة أمشاط رصاص أصفر لامع، هزها أمامي حتى لامست أنفي..
رد التهمة..

– خرجت من المجدل بك وبها، تركت ورائي كل شيء، وهما لك حتى تعود بها مع زغاريد أمك وأخواتك الولايا.

– ولماذا خرجتم ؟ ولماذا علينا العودة..

– قرروا أن بنادقنا لا تستطيع حماية الأرض، وأقاموا الدشم والمواقع، فصدقنا وسحبنا بنادقنا..
حفظناها لحماية العرض ولحم الولايا، يا ولدي نحن أفضل من غيرنا.. لجأنا من فلسطين إلى فلسطين..

وتيبس حلقي عى جفافه، وقبضت المرارة لساني، فصديقي عودة دليلي إلى المجدل، ممصوص مثلي وفاشل في حل مسائل الحساب...

وأبي يحملني بندقية ألمانية اشتركت في الحرب العالمية الأولى، ويتحدث عن دروب أجهلها، يورثني داراً لم أضيعها، وكرماً لم أتذوق ثماره فجة أو ناضجة، اللهم إلا من بعض حبات التين أو بلميات الجميز يحضرها محمد فارس لجدتي نفيسة، يدربني على حلاوتها حتى أتعرف عليها عندما أعود.

يتحدثون عن شيخ رابض عند عتبة البحر، يرصد أمواج عسقلان، يفتقد تلاميذه ومريديه، وخاصة "أبو صبحة " الذي " كسر الطبل...

واحتفظ بالرق الصغير والسنجة، وأقام خصه في المقبرة من هلاهيل قش وخيش، لا يزور ولا يزار، لا يقبل صدقة ولا يقرأ القرآن لميت أو غائب، يغتسل بماء البحر فجراً كل جمعة صيفاً...

ويلجأ إلى حمام السمرة قبل توافد الرواد شتاءً مسبحته الطويلة على صدره، ولم يعد لكتابة الأحجبة، يبكي طويلاً كلما سأله الشيخ محمد مهدي الضرير:

- خذ بيدي يا أبي صبحة

- تعرف على طريقك بنور بصيرتك يا شيخ محمد، الله يأخذ بيدنا جميعاً.

يطلبه الشيخ محمد بعد أن يقرأ الآيات:

- شاركني الطعام يا أبا صبحة ، تعرف على خبز الأحياء وأرواح الأموات

يسبـــــّح ويشيح بعـــــيداً:

– نويت الصيام حتى ألقى وجه الحبيب وأعود إلى المقام.. طردنا البركة عندما تركنا المعلـــم وحيداً يا شيخ محمد..

يقولون إن محمد فارس يمر على أبي صبحة في المقبرة، كلما رجع من عملياته، ويضع في كفه حفنة من رمل المقام، يسفها الشيخ على الريق، ويغمى عليه، لا يفيق إلا بعـــد أن يجـــف الزبد حول شدقيه..

وأبي يطبع في قلبي صوراً وحكايات وخرائط لطرق وسبل وأسبلة، يرتج عقلي، أنـــا الـــذي جئت إلى الدنيا على عطش بعد أربع بنات..

أنا العطش، وأنا الحكاية، وحافظ الرواية، والرواية تحوصلت في قاع الدماغ، توزعت مـــع الدم إلى خلايا جسدي الممصوص ، جلداً على عظم كمصران الجائع ، أندس فـــي حـــضنه، يتكئ على عمود ظهري الطري ويغفو..

من منا الكبير ومن منا الصغير؟

من الساند ومن المسنود؟

تفوع فيّ التفاصيل، أجمع ما تناثر من حكايات، أنصت لأحاديث جدي وأبي حـــسنة وأبـــي رباح المنزرعين في "جور" الأنوال كفسائل نخيل شاخت قبل أن تطول الـــسماء، أو خلفـــات موز جفت بعد انحسار الماء عنها، أتسقط أحاديث العمال الشباب على الأنوال الجرارة العالية، أحمد شمعة الذي عاد يتعلم القراءة في المدرسة الليلية، حتى يرضي حسنة، ورضوان العتيق الصامت على نوله بعد أن كان صاحب قاعة "تطبل وتزمر" في المجدل، وجواد المنسي القوِّيل الدبيك اللويح الذي يرقّص أبا بشير حتى يغسله عرقاً وعافية..

لطش منديل وباطرافو لواهن

وسبع ضلوع في قلبي لواهن

حُرمت النوم يا لاحق هواهن

هدوني البيض وعيون المها..

يتراودون حول رياح ولت، وصباحات ضاعت، وعيون صبابات عزت في ملاعب روبين ووادي النمل، موسم الحسين وسهمود الدبيك، وارغول (أبو عقيل)، عن لصوص وشطار، وبنات مثل الورد، وتباريح مواويل يحملها البحر على صدر الموج، تغور في الأرض، تعود مع ماء العين جرار ماء يفيض من جابية الشيخ نور الظلام ومن بئر بيارات أبو خضرة والشيخ عمر...

حكايات عن بطولات وخيبات ومعركة خسة، ولغم وقطار لم ينسف، وبايكة تطايرت، وطيرت عمران شقورة وعوض فار، وأبو لبدة، وأبو اللبن والدقري، لحم تناثر نتفاً تعلق في أغصان الشجر، أو غاص في ثنايا الأرض المبقورة، عن أرض مفتلحة، وحفر صغيرة...

أشتال الخشخاش والليمون الحلو المزروعة حديثاً تنتظر مواسم الرقعة، عن ماتم جماعي في ساحة البلدية ومآتم في الحارات..

نواحات ورددات على لحم اختلط نسبه على الناس، بقايا سيقان وأقدام وعقل أصابع، عن رابعة تشق الثوب حتى سرة بطنها المتكور مثل "زقطة " البطيخ ، تعلن حملها على أهل البلد تشهدهم على لحم الثوار المفروم بنار اللغم، تقبض على كف عوض، وقد تعرفت عليها من بين النثار، دافئة تناولتها عن غصن شجرة ..

لم تخطىء كفاً جاست في بدنها، وأصابع تدللت على لحمها وارعشتها.. بكت البلد ، وسجل الشيخ عثمان زقوت عقد زواجها من المرحوم...

ولم يعدم الشهود يصادقون على عقد النكاح ، ويصدقون الحكاية التي توزعت في الحـــواري، واعتمد الجنين المخبوء تحت الجلد، يومها أعلنت أم عوض:

- اذا جاء ولد سموه صابر ،وإذا جاءت بنت سموها ناعسة

وأما أن حبا صابر اليتيم على الأرض، حتى كانت جدته لأبيه قد طفشت إلى الجبل مع زيات جوالّ، استضافته وحممته في بيتها، فتهامسوا عليها، ورجموها، فاستجارت بـــه، فأجارهـــا، باعت عنزاتها وقليل متاعها ومضت في أثره تاركة صابر لأمه...

ونشأ الطفل في كنف زوج أمه الكحيان الذي ورثها أرضاً محروقة، لم يتبق مـــن معالمهـــا سوى دمعة معلقة على بياض عينها، تطلب الستر في ظل رجل بدلاً من ظل حائط، مرتاحـــة لسرتها التي لم ترتفع بعد عوض، تتحمل ركلات الكحيان الطارئ على لحمها الذي يـــرفض نطفاته، تخلصها أم بشير منه

- اللي راح ما بيرجع يا خال ، اللحم إن ما عشق بيخاوي

تزجرهـــــا القابلة:

- قسمتك ونصيبك يا خايبة، والرجل له حقوقه، أنت بدك تعملي كل يوم زوج؟

- هو أنا منعته؟ ايش أعمل له إذا كان ظهره فاضي.؟

- فاضي ولا مليان، ربنا لمّا بيرزق ما بيشاور

ولم تلحق رابعة الناس إلى غزة، وتضاربت حولها الروايات، وغابت مع من غابوا تحـــضر عندما تناوش النساء سيرة صابر، ويأتين على سيرة الكحيان الذي يمم شمالاً...

أما صابر فقد أخذ عن أمه العينين الواسعتين والرموش الطويلة، تظلل البؤبؤ المحيـــر دائـــم السهوم، ورث الأرق والعشق، تسوقه قدماه إلى قشع "النور" في الشجاعية، يطـــرب لنقـــرات الدفوف، يتمايل على إيقاع الطبل، ويغشى عليه على صغر سنه...

تنوح ربابة النوري القهقير بعد أن تخمد نار الكيرعلى بقايا جمرات تحت ابريق شاي ثقيل، مزاج راحة بعد عناء يوم ثقيل..

يتمدد صابر ، يستعيد سيرة أبيه اللّويح، يرسمه متمنطقاً بالسللحك، يجرجر في أذياله صـــبية ذات عيون سوداء، تهبه نفسها مختارة...

يهم بها على سنة الله ورسوله وبحضور شاهدين من الثوار، تناثروا معه يوم انفجار اللغـــم، وترسبوا في حكاية أثمرت الصبي العفي السائر نحو فحولة مبكـــرة، لا يعـــرف لـــه بيتـــاً، يتصرمح بين بيوت الأعمام والأخوال والأقارب، يشاكس في الحواري والطرقـــات يـــضرب ويُضرب، ويسيل دمه وتتمزق ثيابه، يتعرى ويجوع، يأتينا يملأ بطنه، ويغتـــسل ويمـــضي، حضوره فرحة وزفة نقوم بها نحن الصغار، نضحك معه وعليه، لازمته الجاهزة رداً على كل الأسئلة والإستفسارات

" عليك العوض يا (أبو عوض)"

تعقبها ضحكة مجلجلة لرجل صغير، يحملني ويمضي بي إلى سدرة الخروبي، يملأ جيوبي بما تساقط من ثمار التمور، لا يأبه بزعيق عمال المقهى، يصعد بي إلى شارع فهمي بيك..

يهامس "أبو الروم" في الخرابة، يستفز ديك الحبش الرومي يلوح له بخرقة حمراء

(ديك الحبش لمّا انتفش قال خربط خربط يربط مالطي)

ينفش الديك ريشه وينفخ عرفه الأحمر، يفرد مروحة ذيله ويصهل..

يطاردنا الرجل يسبنا ويلعن جدودنا، نكون قد ابتعدنا وتركناه لتعليقات الباعــة والتجــار "الله يهديك يا أبو الروم" انت مربي عندك ديك أهبل بيرد ع الفاضي والمليــان"، يتجــرأ أحــدهم ويقذف أبا الروم بحصوة مداعباً "سكر يا قليل الدين راحت منك فلسطين.."

يهتاج أبو الروم، تحمر عيناه:

- ما هو الحق مش عليكم، الحق على المفتى اللي إنغش فيكم، وبدو يرجع البلاد بزنودكم .. إخص عليكم شعـــــب عرص..

يعـــــود إلى الخرابة يصب جام غضبه على الديك:

- ولك يا عرص اللي ينفش ريشه بينتفو ، ما ظل فيها مراجل.. سقى الله لما كنت أقفل سوق العرصات وأهز أتخن شنب..

إنت بتفكر أن الشوارب اللي على وجوههم شوارب رجال، .. الرجــال راحــت.. الله يسامحك يا حاج أمين.. ضعت وضيعتنا وراك.

نصل الدكان، تكون أصداء فوعة (أبو الروم) قد سبقتنا، فيدرك أبي أن صابر خلف الهيصة، وأس البلاء، يوبخه ويهم بضربه، لا يحميه غير جعفر فلفل الذي يبدأ محاضرته باللغة العربية الفصحى، عن أبي الروم الذي شارك في ثورة 36 وكان من شبيبة المفتى وأحد أفراد حرسه الخاص أيام المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول الذي انعقد في غزة وكيف منعه المصريون من مرافقة الحاج إلى مصر ..

يؤكد الأستاذ جعفر:

- لازم نحفظ للناس حقوقها وتاريخها ونضالها حتى نحترم أنفسنا.

يستهجن أبـــــي ما يسمعه:

– معقول يا(أبو السعيد).. أبو الروم كان من الثوار، ايش كان يعمــل يربـــي لهــم دجــاج وحبش؟!.

كان يملأ الجردل بماء المجاري، ويدور على التجار في السوق يوم الإضراب
" سكر يا قليل الدين ، راحت منك فلسطين"
ومن لا يقفل محله يرشقه بالقاذورات، مشوار واحد يكون الإضراب التجــاري قــد شــمل السوق.

يسرح أبي بعيداً يخرج صوتاً ساهماً:

– ما هو أبو صابر راح مع الثوار في لغم المجدل، فاكره يا "أبو السعيد"؟

يربت أبو السعيد على كتف صابر ، يتحسس زنديه الناميين ، يحدق في وجهه..

– يمكن أبوك ناضل مع أبو الروم، هل ترضى ازعاج أصحاب أبيك ؟

يقف صابر مبهوتاً ملجوماً، يسمع الكلام ولا يعيه، تستغلف عليه لغة الرجل الفصحى، ينفحني أبي قرش، ويدس في يد صابر شلناً ورقياً ، يمضي صابر بـــي نــشتري أقــراص الكــسبة المرشوشة بالسكر والسمسم، نستحلب ريقاً مغمساً ببقايا الزيت والطحينية الحمراء ثم ننعطف الى سباط المفتي، حيث معمل صوان للمكسرات والحلويات، يملأ صـــابر جيوبـــه بـــالحلقوم والشيكولاتة..

يوصلني إلى البيت ولا يستجيب لنداء أمي له بالمبيــت فــي الــدار، بــدلاً مــن "الدشــارة والصرمحة" يحشو رغيفه بالفلفل الأحمر المخروط ، ويتزود بالزيتون ،يأكل بشهية ،يــشفط لعابه مع لسع الفلفل..

تشيعه أمي مستفزة منه خائفة عليه:

- الحق على اللي أعطاك مصاري تصرفها على النوريات يا نوري.

يعطيها حبة حلقوم امتناناً، ينقر على جيوبه تباهياً، ويختفي، نسمع أخباره من الكبار، يتحدثون عن تعلقه بياسمين بنت الجنكية "روجينا"...

تعلمه ياسمين، دق الطبل والنقر على الدف، تجرجره وراءها إلى الأفراح والموالد..

نتخيل صابر وهو يفرغ جيوبه في حجر ياسمين، ويتمدد عند باب قشعتها بجانب الكير يحاور بقايا فحمات ماتت نارها..

- 3 -

في الحارة, والمدرسة, والسوق، تلفعنا بألقابنا، نعود إلى منابتنا اليافاوي، والبدرساوي، الحمامي واللداوي والغزاوي.. و.. و..

أبي وجدي وخالي وأمي وجدتي, يتحدثون عن قضاء المجدل الذي يضم أربعين قرية، المجدل عسقلان المدينة الجنوبية الثانية بعد غزة..

الأسواق والأنوال والأضرحة، زارها النحاس باشا وأعجب بأهلها، وأثنى على نمط الحياة فيها، ومر بها غاندي، وتوقف عند النساجين طويلاً، وضم مغزله إلى صدره، وربت على ظهر عنزت...

المجدل يردها القرويون، يبيعون ويشترون، ويوثقون حجج بيع الأراضي، وعقود الزواج، يستخرجون شهادات ميلاد، يرسلون أولادهم إلى مدارسها، ويستخفون بأهلها الذين يعلمون البنات، وعندما قامت الحرب لجأوا اليها ،واكتظت بهم الخانات والبيوت والأسبلة، افترشوا الأرض في الكروم يختبئون في عب أشجار التوت والتين والجميز...

رحلت المجدل، وأخذتهم معها لاجئين إلى غزة، معدمين إلا من حصص الإعاشة، نأت بهم الديار وهاموا، لا دار ولا أرض، يحسدون المجادلة الذين ركبوا أنوالهم وشدوا الخيوط، يحترفون كساء العرايا في وقت الشدة، حرفتهم تعصمهم من ذل السؤال..

المجادلة ينظمون بيوتهم كخلايا النحل، ولكل دوره، رجالاً ونساءً وصبايا وأطفالا..

تنتشر القاعات في أحياء المدينة، في البوايك وتحت الخيام في المخيمات..

ومن القاعة إلى السوق إلى المدرسة نتلفع بألقابنا، نخرج وراء المعلمين في المظاهرات...

نزقزق في فضاءات الشوارع والأزقة "لا توطين ولا إسكان" نرفض مشاريع الأمريكان، والأمريكان بعيدون في بلاد بعيدة..

يصلنا منهم علم أبيض ورقعة زرقاء ونجوم على أكياس الدقيق، وكفان متشابكان فوق شعار يقول : " ليس للبيع ولا للمبادلة " حصص التموين بالكاد تحفظ الأنفاس في الأجساد، وهم في بلادهم يتوهمون أن في هداياهم ما قد يفيض ويقيم سوقاً للبيع أو المبادلة...

يبقى منهم قماش الأكياس الكتانية الخشنة، خشونة عرق مزارعي القنب في الهند..

تحيكها أمهاتنا سراويل وبنطلونات نرتديها ليتربع الكفان المتشابكان على أقفيتنا..

فتصبح ليست للبيع أو للمبادلة، ويتحول الأمر إلى نكتة ثقيلة لزجة، سرعان ما نترجمها إلى لكمات ومباطحات وألفاظ بذيئة، يختلط علينا الأمر حول سلع المبادلة، هل هو الدقيق أم الشراويل، أم أقفيتنا العجفاء الممصوصة جلداً على عظم..

نصطف في طابور المدرسة، نشرب حليب الإعاشة الساخن المخلوط بزيت السمك (الذي يقوي النظر ونعافه)، تحت رقابة المعلمين، يشجعنا على ذلك صلاح اللبابيدي معلم الكشافة، نصطف خلفه جنوداً صغارا، يمضي بنا إلى الأحراش، نتوزع إلى مجموعات صغيرة، نتدرب على لعبة الأسهم، نتعرف على المسالك والدروب وأساليب التخفي...

نتعرف على الإشارات والعلامات، ونعود إلى نقطة الانطلاق، نعرف أن دروب العودة مثل دروب الغابة لا تحتمل السهو والخطأ, لأن الخطأ يقود إلى المتاهة في الغابة المتشابكة التي لا تقبل الاعتذار، ولا ترق لبكاء ونشيج المذعورين الخائفين، ودرب الوطن يبدأ من أسلاك الحدود الشائكة، والمسارب المؤدية إلى المجدل، جميعها تقود إلى البحر.. ..

في الليل أرقد في حضن أبي أحدثه عن معلمي، وإشارات الكشافة، وطرق عقد الحبال، وحلها وتثبيت أوتاد الخيمة...

يحدثني عن الناس والجيوش والطائرات التي وزعت الموت على الحواري والكروم والمقابر، حتى القبور نبشت، وقتل الأموات بعد موتهم، نثرت القذائف عظامهم مع الأشلاء الطازجة، يحدثني عن بنادق صمتت وتحولت إلى عصي ميتة...

وعن يهود تجهزوا للحرب قبل الحرب بزمن، وعن عرب تاجروا بالحرب وتاجروا بنا، وعن زعامات مخذولة وجيوش أدركت الخديعة بعد فوات الأوان...

عن أمراء وحقراء وأبناء ذوات وأولاد غلابا، عن ثوار ناموا على لحم البطون وتزودوا بالتقوى وما ترسب في صدورهم من تعاليم القسام، وعن أدعياء غمسوا خبزهم بدم الناس، وتقلدوا المناصب بعد الهزيمة، وعن بندقيته الألمانية وأخواتي البنات، وأمي الصبية والأرض والعرض والانسحاب إلى خطوط الدفاع، والهروب الكبير (بعد سقوط المدن) في ذيول الجيش المصري المظفر الذي رأى في سقوط المدن مصائد للعدو عند الهجوم المضاد، عن اندفاع للخلف وهجوم للأمام...

عن الناس والهلع ورئيس البلدية الذي سبق الناس، خرج بكامل هيبته وكامل عدته وعتاده، وأثاث بيته وزوجته وبناته الجميلات بعيداً عن القصف، لم يلوح لأحد، ولم يرد على الأسئلة المشدوهة المعلقة في عيون الناس...

عن بندقيته التي رماها على قارعة الطريق، فالتقطتها أم محمد العمشة، وبصقت في وجه جندي حاول اعتراضها..

شقت ثوبها، وكشفت لحم صدرها ،وأخرجت ثدييها في وجه الشمس تستخير وتستجير

- يا ريتكم ما جيتوا ولا حاربتوا، يا ريتهم قسموا، ولا كانت الحرب، يا خراب بيتك يا بلد..

يا ويلي على النشاما اللي راحت وتركت غرابات البين.. ياريتهم قسموا.

والنشاما يا ولدي لا يملكون غير اندفاع صدورهم، يهاجمون ويموتون ويــوم هبــوا علــى المستعمرة، وقبل أن يصلوا إلى مشارفها أفرزوا قياداتهم وطلائعهــم مــن حــاملي البنــادق والمسدسات، وشكلوا درع حماية من حملة النبابيت والمناسيس وعصي الطواري والمــذاري والفؤوس وقضبان الحديد التي اقتلعت من أسيجة البيارات والكروم

أما من تسلح بحجر وقوة زنديه فقد توزعوا في الكروم حول المستعمرة التي وزعت الموت من أركانها الأربعة، وفرقت الناس فلولاً هائمة، وقبل أن تعود الفلول بالجرحى والقتلى كانت القيادة قد أصدرت بيانها عن الهجوم الكبير، الذي أسفر عن قتلَ وأسر عدد كبير من اليهــود، وقبل أن يُحصى الناسُ المفقودين حدث الهروب الكبير، وطردت الحكايات الكبيــرة فــصول الحكايات الصغيرة، وذرت النكبة العباد في كل الجهات...

ابتلع البحر المراكب ومن عليها، وطارد البرد والعطش القوافل، وداهم المخاض زوجة خالي، فاعتصمت ببطن توتة عجوز، ووضعت.

يحدثني عن الحمارة القبرصية (كيف هج جحشها الأبيض) التي حملتني وأمي على ظهرهــا، وأردفت أخواتي في الخرجين..

عن جدتي نفيسة الممدة فوق بعض فراش وكيس حنطة فوق هودج الجمل تنوح وتجوح على جارتها ورفيقة عمرها التي طارت في الهواء تعترضها وتخطف رسن الجمل من يد أبي لتعود به وبها إلى الحارة، تسب وتلعن.

- وين رايحه يا نفيسة ، يا خايبة يا عايبه، دارك أولى بيك ، رايحه للبهدلة فــي بــلاد الناس..

رقدت أم محمد العمشة على الأرض يفور الزبد من شدقيها، صدرها يعلو ويهبط.. أبي يخلص منها الرسن ويمضي صامتاً يقرعه عويل جدتي المعلقة على سنام الجمل..

– رشوا المية على وجهها، ورجعوني على داري، متخافوش علي، خلوني في الدار لما ترجعوا، وان طالت أسحب العنزة والجحش وألحقكم..

سألت:

– يعني هزيمة يا أبي ؟

– ما قاتلنا علشان ننهزم، اللي حاربوا هم اللي انهزموا

– من هم ومن أنتم، أبطالكم، رموزكم، جهلكم رعونة مجانينكم جيشكم، والمجدل بقيت مدينة مفتوحة لماذا لم تعودوا ؟. لماذا انتظرتم ؟

– قالوا جولة، والحرب جولات، كر وفر

أنتم من فر ونحن من يكر، على صدورنا الشارات الملونة والخرائط المحظوظة.

دروبنا مجهولة ومساربنا لم نسمع عنها..

– ومتى الجوله القادمة يا أبي؟

– هذا زمانكم اختاروا مواعيدكم

تتقلص دودة ظهري، ويجف حلقي، تقبض مرارة لساني، أخواتي الغافيات من حولي، أخي في حضن أمي، وأختي الكبرى زريفه أصبحت امرأة صغيرة تتدرب على أعمال البيت، وتعتني بالرضيع...

عد خلف دولابها تلف المواسير، وقد أدركتها ولطيفة الهجرة، فلم تدخلا المدارس، ولم تتعرفا على كتاب القراءة الرشيدة، ولا كراسة الحساب، مثل الشعنونة هنيه التي تتنطط بمريولها وتصبغ جدران الدار هباباً وشحباراً أسود...

درب على الكتابة بما تأخذه من فحمات الكانون أو نتف الطباشير وحصى "حجـــر الحـــورّ"، ترسم الحروف والأشكال والأرقام، غير عابئة بالضرب والزغد والتقريع من الكبار.

في الليوان الغربي يتسع المكان لإقامة البيوت، والأحـــواش وحجـــرات النـــوم، وصـــالونات الاستقبال، وحتى المطابخ والحمامات اللازمة لعريس وعروسه يلعبان، تضبطنا جدتي فاطمة وتكتم ضحكتها وسعادتها، واستهجانها من العروس النشطة..

- من يومك نجســـــة

حول الكوانين في الشتاء يتحدثون عن ميلاد هيجر تحت التوتة، وأتخيل أنا النجاسة بيـــضاء ناعمة كجسدها المغمس بحمرة بكر، أو زرقاء صافية صفاء عينيها الضاحكتين..

هل كانت تضحك عندما سحبوها من بطن أمها ونظفوها من وسخ البطن، بما تيسر من مـــاء بارد، لا تمل جدتي من ترديد الحكاية وتشرق بدموعها، تخفض صوتها حتى لا تستثير جدي المدد على فرشته:

- في الهوجة نسينا الشرايط والكوافيل، وكنا نطلب من الله أن يعوضنا بولد، يبرد نـــار الولد البكر اللي خطفته الحمى في غمضة عين، ولد مثل فلقة البدر، وجهه مثل قرص زبده ..
سخن يا كبدي وما برد إلا في ترابه.!

توقف الصراخ في بطن التوتة، ولم تنطلق زغرودة، صراخ حاد مخنوق لكائن جديد يواجـــه الدنيا، لف جدي حطته حول وجهه...

وأشاح بعيداً عن خالي الذي لا يقر ولا يهدأ حول التوتة، تقول جدتي "انشغلنا بالوالدة حتى لا تأخذها حمى النفاس، ونسينا المولودة على كوم القـــش وورق التـــوت الناشـــف، فازرقـــت المسكينة، شلحت شرواليّ ولفيتها فيه..

تقهقـــــه جدتي وتواصل:

– أكملت مشواري إلى غزة ماشية، خايفة أركب الحماره ينكشف ســاقي أو يتعــرى لحمــي وتكون المصيبة..

كان خالي يسند زوجته "الهفتانة " حتى لا تسقط عن ظهر الدابة, حاذته جدتي تزدرد غــصة حلقها:

– ايش بدك تسمي العروس يا محمود إن شاء الله تتربى في عزك..

جدي يحسم الأمر من وراء لثامه:

– سموها هيجر

– نسميها زاهدة يا ختيار؟

– قلت هيجر.. ايش شفنا على قدومها غير المرمطة..

والتفت إلى خالي، يكفيه عبء البنات:

– بنتك يا محمود لابن أختك..هذه وصية وأمانة

– حاضر البنت للولد إن عاشوا وطلعوا من هالأيام الغبرا

واجتزنا الأيام الغبراء، وتمردنا على فساد حليب الخوف في صدور مرضعاتنا، وعلى زنــخ حليب وكالة الغوث المطعم بزيت السمك، أدركتنا الثلجة بعد عامين، لوحونا على نار المجامر حتى لا يتجمد الدم القليل في عروقنا..

حبونا، ومشينا ، وتسللنا بين أكوام الغزل، نلعب عروس وعريس أصنع لها من خيوط الحرير عقوداً أو أساور، نخربش الغزل وننفل المواسير، ترعبنا صفعات خالي، ركلاتـــه الغاضـــبة، زعيقه وسبابه ولطعات كفه على أقفيتنا، تسحبنا أمهاتنا من براثنه..

أهرع إلى حضن حسنة، تخبئني وترفع يدها في وجهه:

- حد الله يا عم أنا بأسلّك اللي خربشوه

ينكسف خالي أمامها، وتموت كفه وتنهدل ذراعه، هل لأنها غريبة عن الدار؟

أو لأن أباها المشبوح في النول يحميها منه، تسحب زوجة خالي هيجر بعيداً عن بطش أبيهـــا وتشفي أمي، تقرصها وتفرك لحمها:

- كم مرة قلت لك ابعدي عنه ومتلعبيش معه يا جلابة الفضايح

أمي تصب الزيت على النار من خلف دولابها تلغز:

- من يومها نجسة وعينها فارغة.. أنا عارفة لمين طالعة؟!

وتوجه الحديث لي في حضن حسنة:

- ايش شايف فيها قاتل حالك على ملاعبتها..

تستشيط زوجة خالي:

- اللي عندها كلمة فاضية تضبها، بس يطول يتمدد جنبها، هو ما حـــدش عنـــده ولـــد ممصوص غيركم...

طويلة بيضا متحفزة، عيناها بحر هائج، تناوش أمي بصوت مخنوق على حنقه، يخرج فحيح لا يصل إلى خالي المنكب على برميل البوش والصباغ...

تتراشق وأمي حكايات وإشارات عن ربابة وشاعر، والزيناتي خليفة وذياب بن غانم، يهدأ الحديث يفتر الحقد والغل، وتعود الضحكات خلف الدواليب، تدور الطيارات تحمل شلخات الغزل خيوط تربي المواسير الراقصة على المرادن..

نتسلل الى الليوان، نعيد ترتيب ما خرب ودمر تتجاوز طقوس العرس، تهدهد طفلاً أنجبناه دثرناه بالقماش المشغول على الأنوال، نختلف على اسمه..

تتغنج هيجر وتشترط:

- نسميه محمود على اسم أبي

- لا عبد الجبار على اسم سيدو، والبنت هنية على اسم ستها

- ما هو أبويا سيدو كمان.. علشاني سميه محمود، والولد الثاني عبد الجبار

- أنا قلت عبد الجبار والولد الثاني محمود

- عبد الجبار مش حلو، وكمان أبوك مش جبار، ما بيضربش مثل أبويا

نمتص الخصام أو نؤجله، نستقبل زورانا من صغار الدار الذين يحسمون الأمر علينا.

- كيف حالك يا أبو العبد، كيف حالك يا أم العبد، ليش عبد الجبار بيعيط، رضعيه يا أم العبد علشان يشبع وينام..

- مش راضي يقبل بزازي بدو بزازة

ينفجر الضحك خلف الدواليب..

نداري خجلنا متلبسين بتصنت نساء الدار علينا..

والدار واسعة والنساء رائحات مقبلات...

منهن من يقضين نهارهن في الدار ويعتبرن من العائلة مثل حسنة ومنهن من يأخذن حصصهن من الشلخات لمواسير السداة في بيوتهن ...

ومنهم من يقفن على يد خالي يعصرن وينشرن الغزل الممعوك والمصبوغ والمقصور في مشاكيك مبطوحة على جحوش خشبية تحت الشمس..

وآخر النهار يجمعن ما جف ونشف، ويقلبن ما احتفظ برطوبته قبل حلول المساء...

- 4 -

معلق على كتف أبي، عند سدرة الخروبي، تجمع الرجال في المقهى، تحركوا إلى الصنافور...

مررنا بالخروبة عند الجابية، بحثت في عوسج سياج بيارة "أبو راس" عن العربيد والعربيدة، لم يخرجا لالعابهما على عادتهما...

يتلاصقان بطنا لبطن، ثم بطناً لظهر، يحذرونا من اللعب عند الخروبة، فالعربيد لا يلدغ وليس فيه سم مثل الثعبان، ولكنه يهاجم ابن آدم، يلتف حوله يعصره بعضلاته حتى تهرب روحه من بدنه، ثم يقسمه نصفين...

أمي تحذرني دوماً " لا ترجم العربيد فهو يتبلع الصغار ويعصر الكبار"

نتفرج على العربيد والعربيدة يجوسان أشواك العوسج..

ناطور البيارة يميز الأنثى من بطنها الرمادي المائل إلى البياض عن الذكر شديد السواد، نتساءل نحن عن أولادهما العرابيد الصغار، نرهف السمع لحكايات عجائز الحارة الغزيات عن بركات العربيد الذي يهاجم من يزعجه، وإذا لم ينل خصمه يبلغ عنه "الحية" الألفية أم القرون الذهبية القاطنة كتف تل صلاح الدين المواجهة لعوسج السياج...

ويتحدثون أن الحية تآخت مع سيدنا الشيخ تاج الدين الخروبي، ووقفت عند باب الكهف تحميه من جنود الجزار يوم طلب رأسه...

ويقال أنها كانت تسعى خلف الشيخ أينما ذهب، وتقف على ذيلها عندما يدخل على الشيخ مدسوس في زي طالب حاجة أو سائل مشورة...

يرفع الشيخ يده إلى السماء يحدثها:

- لله الأمر يا مبروكة

تهمد، وتلف طولها كعكة كبيرة، تتوسد التراب، رأسها في مركز دائرتها مشرعة قرنيها الذهبيين...

ويقال أن ما من مدسوس دخل على الشيخ إلا وتبعه، وأصبح من مريديه يبذل روحه في سبيل الدعوة للجهاد ضد ظلم الجزار وفساد الأحوال..

معلق على كتف أبي نقطع ساحة الشوا إلى الصنافور، خلق كثيرون، رجال ونساء وطلاب وأعلام ورقية ملصقة على قصبات خشب النخيل، أو بوص أبيض، فرحة طافحة على الوجوه..

هتاف يتربع في الفضاء يتوزع في الحواري، تطرح البيوت ساكنيها (الإتحاد والنظام والعمل) يتناغم مع دقات الأقدام على الأرض..

قطار الرحمة قادم من مصر. يقطع سيناء، المجربون من الرجال يجسون دبيب القطار بوضع آذانهم على قضبان السكة الحديد، يقدرون المسافات..

القطار في البوليس الحربي..

القطار قطع المزلقان (بالاتحاد والنظام والعمل) مصر تعود طوابير ضباط وجنود مع اللواء محمد نجيب، يسبقهم قطار الرحمة حاملاً خيرات أم الدنيا، يتهادى، ينشر صفيره، عرباته على امتداد النظر..

وأنا معلق الّوح بعلمي الصغير، ساقاي تدقان على صدر أبي نودع القطار حتى عربة السبنسة، الجنود يلوحون..

يلتهمون ما وصل إليهم من برتقال انهمر عليهم من الناس..

ثورة مصر يقودها اللواء والبكباشي، حلوا محل الملك ودولة الباشا ومعالي الوزير، يعيدون أصداء معارك انتهت ومعارك ستكون ..

فردتا صندلي تطبعان نعليهما على قمباز أبي، شحبار الكاوتشوك حديث التنعيم على قـرص الجلخ ..

أبي يلعن محرم الكندرجي، ومصمم الصنادل وحافظ الجيرة، يخصنا بنعال من أفضل أنـواع الكاوتشوك، ويحلف أنها مسلوخة من إطارات السيارات الألمانية والإنجليزية التـي خاضـت الحرب العالمية الثانية، يهزأ محرم من جاره الجاروشة اسكافي الأفندية الذي يفضل الأحذيـة على القوالب حسب مقاساتها، يتعامل مع الجلد والضبان والكريب الأبيض، ويتعـالى علـى كندرجي الكاوتشوك وسكينه التي تعمل في ثنايا الإطارات القديمة.

- ولك يا جاروشه تعال خذلك نعل، تموت قبل ما تهريه، ولك نعالي دخلت الحرب مع رومل.

يتدخل جار يصب الزيت على النار:

- طيب الجاروشا بيعيش قد النعل ولا قد رومل

- النعل يعيش قد النعل، ولك كاوتشوكي وقف في وجه تشرشل

- وقف قدام تشرشل ولاَّ هرب من قدامه

- غلطة الكبير كبيرة.. ما هو رومل طلع حمار لو رد على الحاج أمين كان ما خسر الحرب، قال له المفتي انطق بالشهادتين وصلي ركعتين وتوكل على الله ربنا ينصرك.. قـام رومـل ضحك على المفتي ومات كافر، وخسرها دنيا وآخرة.

- مين الكافر يا محرم رومل ولا الجاروشة

- لعن أبوكم شعب غناج مع كل دقة بترقصوا، صدق فيكم فدعوس ينفخ في برزانه بيسوقكم وراه.

يتوقف محرم عن المساجلة يدير موتور قرص الجلخ، يعلو الأزيز ويقتل أصوات وصـــراخ المتحرشين والممرضين، ويدخل الكندرجي في طقوس التجليخ وتنعيم النعـــال مـــن البقايـــا والشظايا.

كل الناس عند الصنافور، وفدعوس بطبله وبرزانه في استقبال قطار محمد نجيب يـــسقطون الملك والباشوات إلى غير رجعة..

أسأل أبي:

- ايش محمل القطار؟

- خيرات مصر..

- علشان اللاجئين؟

- علشان كل الناس مواطنين ولاجئين

يعبر القطار،ويهبط الصنافور يغلق المزلقان..

أكياس فول وعدس ودقيق وعرانيس ذرة جافة ...

في الدار يتحدث أبي عن ملك وباشوات و جنود وضباط، واللواء المـــواووي قائـــد الجـــيش المصري في المجدل يوم وقفت "صديقه شلحه" في وجه محمد نجيب وقالت:

محمد نجيب فلسطين بدها رجال، بدها مدافع ودبابات اثقال بدها "برنّات" للجـــدعان تحملهـــا، بدها سيوف من رؤوس العدا تنقط دم وأنشدت:

احنا في منقع الدم والسيف ماله حد
يا خي محمد نجيب قوم انحزق واشتد
والسيف لولا المبارد ما تلحق له حد
اضرب رفاق العدا
ولا تسأل عن حد

يتذكرون الفالوجا ومن حارب فيها، والشيخ عواد والمختار والبلد التي وقفت مع عبد الناص، قدمت المؤن والرجال في وقت الحصار..

عن أوامر الانسحاب والأسلحة الفاسدة، وعن المفتي المحجوز في مصر، بعد مؤتمر وطني لم يأت بعد على سيرته أحد..

وتساؤل عن عودة المفتي بعد قيام الثورة في مصر ، وأنا فرح بعلم صغير ملفـــوف علـــى قطعة من خشب جريد النخيل سبقت قطار الرحمة إلى غزة..

جدتي نفيسة منسحبة من حياة الدار، لا تملك غير صندوقها الذي خرجت به من المجدل تعلق مفتاحه على صدرها بحبل أبيض مشبع بعرق صدرها ورقبتها، لم تستبدله رغم خشونته، لأنه من شعر بطن الجحش الأبيض..

عاشت جدتي خارجة عن التصنيف والتكليف، حصانتها أنها الحمامية الفلاحة التي عاشت وستموت قبل أن تدرك أسرار النول مثل المجدليات اللواتي يتوارثنها جيلاً بعد جيل، تبدأ مع الواحدة منهن منذ أن تتكون نطفة معلقة في رحم امرأة حبالة ولادة يورث السر رحماً عن رحم...

ولأن نطفة جدتي نفيسة لم تعلق في رحم مجدلاوي، فليس من الغريب ولا المستهجن أن تبقى بعيدة عن أسرار الكار و تقسيمات العمل ، لا تندمج في طقوس القاعة والعمال، اللهم باستثناء مناوشاتها لجدي ورفيقيه في جورهم، فهم يقاربونها عمراً وذكريات...

يمازحونها وينفضون غبار الأيام حتى يشرقوا، ويترحموا على جدي، الذي سحبته الجندرمة التركية أربع سنين عاد بعدها بزوجة فلاحة وعزباء عن زواج فاشل من غاوٍ هوى ركوب البحر حتى غاص في قراره ولم يعد، تزوجته جنية من جنيات الماء، يغمى عليه وجداً وصبابة، وعندما يفيق يملأ الدنيا زعيقاً وصراخاً، ينقض عليها حالفاً يمين الطلاق، وعندما يعود إلى رشده لا يتذكر من أمره شيئاً..

يتكرر الأمر وتنتشر الفضيحة في القرية التي تشهد على أيمانه، وتعجب كيف تسوغ لنفسها أن تظل حليلته وقد حرمت عليه..

توضع على حد السكين، مطلقة هي والناس شهود أم حليلة على سنة الله ورسوله والرجل لا يعي من أمره شيئا..

في الليل يجفو اللحم اللحم ، ويغلف أخاديده عزوفاً ورعونة، يصحو الزوج المآخي مهـــدوداً بعد صبوات أحلامه، ونثار زبد على زوايا فمه..

مقتولا فاتر الرغبات في لحم حلال مذعور جفول..

أبوهما المحير المعذب بنصيبها، يركب مهرة حكمته وخبرة الأيام:

- يا نسيبنا مثل ما دخلنا بالحلال نخرج بأبغض الحلال، نصيبك في نفيسة انقطع..

ورمى الرجل يمين الطلاق ثلاثاً وهو بكامل وعيه وانصرف صامتاً..

قيل أنه غطس في الماء المالح ولم يعد، لم يشهد أحد على غرقه، ولا قذف البحـــر جثتـــه، وتحدثوا في القرية طويلاً عن جنية سحبته إلى عشيرتها وتزوجته، وقيل أن وحـــوش البحـــر استنفذت لحمه ولم تبق منه شيئاً طرياً ولا يابساً .

مطلقة صارت أم ثكلى لا تدري، وانتقلت إلى بيت أهلها خاسرة فلم يعمر بطنها من زوجهـــا المراوغ، قانعة بنصيبها حامدة شاكرة نجاتها من ضرة جنية أرقت لياليها، واختارت ما اختاره الله، وأبوها ورثها كرماً في طرف البلد، واصطحبها مع أخيها حسن إلى زيارة الرسول على ناقة بيضاء، جهزت بهودج خصيصاً لها..

وعادت حاجة محناة الشعر والكفين وباطن القدمين ، وسجلت علامتها كأصغر حاجة في قرية حمامة .

حول الكانون نتحلق حولها نستمع إلى خرافية الغولة، نقطع الحكاية إلى حكايات نحبها ونعرف أطرافها:

- كيف تعرفت على جدي؟

لما رجع عمي مصطفى من الجهادية كان معه صاحبه المجدلاوي وقبل أن يمد عمي يده في الطعام تنقل بين أبي ورفيقه..فهم أبي..

- مالك يا مصطفى، اطعم الضيف

- هذا الرجل نشلني من فم الموت.. ووعدته بنفيسة

ترك أبي الرجال في المقعد ودخل عليّ، وبلا مقدمات سألني على مرأى وسمع أهل الدار

- ضيفنا المجدلاوي طالب يدك يا حاجة نفيسة

- وايش عرفه بيّ؟

- عمك مصطفى عاطى له كلمة وهم في الجهادية

- والمجدلاوي عارف اني عزباء، عمي راح للجهادية قبل ما اتجوز

وتدخل أخوها الحاج حسن يعطيها مبرراً للرفض:

- وتعيشي غريبة ديار بعيدة عنا يا نفيسة؟!

-النصيب يا خـــــوي، المجادلة مش غولان ولا بياكلوا الناس، وعمك مصطفى فـــي مقـــام أبوك، بس المهم الرجل يعرف اني عزباء...

وبعد أسبوع رجع وحيداً وعقد قرانه عليها، وعاشت معه في حارة (الطلسة) مقطوعاً من الأم والأب، وانطلقت زغرودة مبحوحة من فم جدته لأمه، التي ربته بعد أن نفق أبوه وأمـــه فـــي هوجة الكوليرا...

وظل في كنفها في حارة الطلسة بعيداً عن حمولته في الحارة الغربية حتى سحبوه إلى الجندرمة، والتقى بمصطفى الحمامي في الأناضول .

وفي حارة الطلسة عاشت غريبة عن المجدلاويات، لم تجلس خلف دولاب، ولا عرفت كيف تلقم الطيار شلخات الغزل، فزوجها بعد عودته من العسكرية جفل النول والقعود في القاعات، وعمل سريحا إلى قرى الجبل يسرح بالأقمشة، ويعود بالزيت والصابون، ويغيب أسابيع قد تمتد إلى شهور...

يتركها وحيدة مع مغزلها وهواياتها في التطريز وشغل الطواقي من صوف الماعز التي تغزله على مغزلها، تتفنن في تطريز المناديل وذيول الأثواب بالعصافير والنخيل .. لزوجات اخوتها اللواتي لا ينقطعن عن زيارتها في غياب زوجها..

تتوزع مهاراتها بين أشغال الصوف والتطريز في البيت، والعمل في الكرم الذي ورثه زوجها عن أبيه ، أما كرمها في حمامة فقد كان تحت اشراف اخوتها يأتون بغلاله كل موسم، ثماراً وحبوباً أو بعض نقود توفرت من بيع مشمشه و عنبه و تينه...

لم يكدر عليها حياتها غير اجهاضها المتكرر ينعكس عليها وعلى زوجها توتراً وقد تجاوز الثلاثين من عمره..

يهتاج ويعلو صراخه ،يوسعها ضرباً وخربشة وخاصة بعد أن مات ولده البكر في أسبوعه الأول، ومات الثاني بعد فطامه بأيام، ولازمتها بعد ذلك حالات الإجهاض، فاسودت الدنيا في عينيه، وفي المرة الأخيرة انطلق إلى الجبل، ولكنه سرعان ما عاد لم يبع بضاعته، ولم يرجع بزيت ولا صابون، وقبل أن يحل الخرجين عن ظهر الدابة سألها لاهثاً..

- أنت حامل يا نفيسة؟.

- الدم فاتتني من شهرين.

وقبل أن تسأله عن لهفته، دس في يدها حجاباً، وأوصاها بأن لا تريه لأحد، حتى تضع..

ولم يغادر البلد حتى وضعت ولداً ذكراً أسماه عبد الجبار، وعلق الحجاب في رقبته..

ونام ثلاثة أيام بلياليها عارياً تحت التوتة في الكرم.

يتحدثون في القاعة عن جدي لأبي أنه التقى بطبيب مغربي في ديـــوان مختـــار درزي فـــي الجبل، ما أن وقعت عين المغربي عليه حتى بادره:

- أنت غريب عن هذه الديار.. ومهموم بذريتك؟!

- أولادي يذهبون موتاً أو طروحاً يا حكيم

- وحد الله واتبعني عند الفجـــــر...

قبل بزوغ الشمس صلى وراء المغربي، وتبعه إلى شعاب الجبل، حيث التقط الطبيب عـــشبة، قرأ الفاتحة وبعض آيات من القرآن الكريم، ثم مضغ أوراقها، وأوصاه أن يجففها، ثم يـــسقي زوجته من منقوعها المغلي بعد الميلاد ثلاثة أيام متواليات، وبشره أن زوجته حامل بولد ذكر اسمه عبد الجبار، وأعطاه حجاباً يعلقه على صدره إلى أن يقدر الله شيئاً كان مفعولا..

أبو رباح يناوش جدتي:

- وايش عمل فيك ابن خالي لما سرقوا الحجاب من صدر الولد.

- الله لا يعيده من يوم.. الله يرحمه ويسامحه بعمله

يستفزونها، ويأنسون للهجتها الحمامية

– يومها طلع الولد للحارة، ورجع من غير حجاب، قام الرجل انهبل، وهبل الحارة معه..

شلح عريان مثل ما ولدته أمه، وراح يرقص في حوش الدار، وجمع عليّ الحارة..

راح الولد يا نفيسة.. بكرة بيموت..

مغربي وساير بأمر الله كل يوم في بلد ، ونزل علي بالقشاط لما سبّغ جلدي وأنا..

أنا في عرضك يا أبو العبد، وهو يحلف عليّ بالطلاق إن صار للولد حاجة ما تظلـــي فـــي الدار..

– والجيران يا حاجة فزعوا لك؟

– وين يفزعوا؟ ييجوا يلاقوه عريان يهربوا من وجهه

يقهقه الختيارية حتى يدمعوا ويسبحون بحمد الله ويطلبون للأموات الرحمة تلخـــص جـــدتي الأمر:

– لولا أم محمد العمشة، رمت حالها على وزعقت فيه:

– استحي واستر حالك زلمة هامل

– همد ولف بدنه واحتضن الولد وراح يبكي..

وعاش العبد، وجاء بعده حسن، ومات الرجل قبل ما يشوفهم كباراً ويفرح فيهم .

وفي الدار تهز سرير أخي تغني له حتى يغفو، وتغفو على غفوته وكأنهما على ميعاد..

تعلق جدتي فاطمة:

- مين قدك يا نفيسة، قلة المعرفة بتريح، أكل ومرعى وقلة صنعة..

يا ريتنا ما عرفنا النول ولا دوّرنا الدواليب..

من حارة الجرجاوي، يخرج الموكب في الصباح الباكر، أبـــي بالقمبـــاز الـــروزا الأبـــيض، وجاكيت الشركستين السمني، تتدلى على صدره سلسلة فضية تنتهي بساعة جيب ترقـــد فـــي جيب صدر القمباز...

تتكئ على الحزام المشدود على بطنه النحيل، الحذاء الأسود برقبة عالية، والطربوش أبو زر مثبت على الرأس الصغير، يبدو أكثر طولاً وهيبة بالرغم من "حبته القليلة" وكما تقول أمـــي "الرجال مخابر مش مناظر.. حبته قليلة وفعله كبير" .

الطربوش لا يغادر صندوقه الكرتوني المبطن إلا قبل السفر، للكي والتنظيف عنـــد "فليـــب ظريفة" مكوجي الطرابيش..

يبهرني البخار المتصاعد من لباد الطربوش المغسول والمشدود على القالب، يتنفس بخـــاراً، يتسرب من ثقوب القالب، المقبضان الخشبيان يحركهما المعلم حركة نـــصف دائريـــة فـــي اتجاهين معاكسين، يتوقف عن الحركة عندما يلفظ الطربوش زفيره..

ويغدو صقيلاً جافاً ناعماً (اعتقدت لزمن أن الأبخرة الهاربة من ثقوب القالب هي ماء عرق أبي الذي يختزنه الطربوش ويطرده قالب المعلم فيليب)

في الطريق إلى المحطة تتكسر الشمس على قامة أبي، ينبطح ظله خلفه، أتقافز خفيفـــاً فـــوق الظل ، أسابقه حتى موطئ قدميه ، يسبقني أبي، ويسلم ظل رأسه لقدمي الـــصغيرتين أحجـــل عليه، أزقزق، وأتعامى عن خالي، الذي يحادث أبي في شؤون التجارة، والإعتمادات والبنوك، يتهامسان فلا يصل حديثهما لأحمد شمعة الذي يمشي أمامهما، حاملاً الشنطة الجلدية الحمراء، ليضمن لأبي مقعده في القطار..

ألتقط حديثاً عن برقية سيرسلها أبي من مصر، وشفره يلقنها لخالي..

عدد كلمات البرقية المحددة توفيراً للتكلفة، وحصاراً لتفاصيل قد يستفيد منها البعض خاصة وأن عامل استقبال البرقيات غير مأمون الجانب في السوق.

وفي المحطة نذوب بين المسافرين والمودعين، والأمتعة والمناديل والبكاء والأكف الراعشة..

عيون تدلق دموعها..

يلوح القطار..

يرن جرس المحولجي، ويهبط الصنافور مغلقاً الاسفلت .. يتهادى القطار..

يدخل المحطة، ويقفز أحمد شمعة إلى العربة، قبل أن يتوقف، يحتل المقعد المطلوب عند الشباك، لا يغادره إلا ليحتله أبي..

يطلق كنترول المحطة صفارته ثلاثاً فيعطس رأس الوابور بخاراً كثيفاً..

ويتحرك بطيئاً باتجاه الجنوب..

تختلط كلمات أبي بهدير العجلات الحديدية على القضبان الثعبانية اللانهائية:

- خليك شاطر ولا تغلّبهم في غيابي

يعود بي أحمد شمعة، لا أستطيع مجاراة خطواته الواسعة، يردفني على كتفه يمضي حتى لا يتأخر عن نوله..

حينما يسافر أبي انقطع عن الدكان، ويغيب صابر أيضاً...

ولم أكن أعرف سبب ذعر صابر من خالي، مع أنني لم أره يوماً يضربه على قفاه مثلنا، ولم يوبخه أمامنا، وهو الغضوب الذي لا يحتمل ذبابة تحط على وجهه أو حتى تقترب من هواء منخريه...

وتعلل جدتي ضيق خلقه إلى كميات البنج التي أخذها في العمليات التي أجريت لعينه في القدس "ويا ريت طلعت على فايدة.." ولم نعرف ما هي العمليات، وعينا خالي العسليتان الواسعتان لا يظهر عليهما آثار هدم أو جروح، ولم ندرك أن عينه اليسرى لا ترى، إلا بعد أن تورمت، وأصبح لا ينام الليل ولا النهار...

فاصطحبه أبي إلى مصر، ورجع بعين زجاجية، يضعها في كوب مملوء بالماء عندما ينام، واعتقدنا أنا وهيجر أنه باع عينه القديمة واشترى العين الجديدة من مصر، وإنها تشرب في الليل لترى في النهار، وإذا توقفت عن الشرب فإنها تذبل وتموت مثل النعنع في حوض الدالية...

يسافر أبي، وتتنفس الدار الصعداء، فهو لا يتدخل في أحد...

ولا يلتفت لحكايات النساء بمن فيهن أمي التي يغلبها عندما تدلق همومها في الليل، يضحك ويهز كتفيه ويرد عليها الكرة:

- الجرح في الكف يا بنت الناس، مين معك في الدار، أهلك أمك وأبوك وأخوك وزوجته، ايش بدي أقول لأخوك، أمك ؟ ولا أختك ؟

تسكت وتهمهم "خلي غلبك في عبك يا غلبانة " يشاكسها:

- المهم الحاجة نفيسة مثقلة عليكي هذي بأقدر عليها ؟!

- يوه يا ابن الناس يا ريتهن مثلها..

وفي غياب أبي تؤول قيادة الدار إلى جدي، ويداوم خالي في الدكان، وجدي الغاطس في جورة النول، يسلم المقاليد إلى جدتي فاطمة التي تتحالف مع أمي...

فتخرج زوجة خالي من ليل أسود إلى نهار أحلك سواداً، تعيرانها بموت أولادهـــا الـــذكور، وخلفة البنات، وتتحسران على خالي الذي يوقف حياته عليها، وهو القادر على الزواج بـــدل الواحدة أربعة..

تحزن زوجة خالي ولا ترد..

وعند الظهر تلبس ثوبها "الجنة والنار" وتتزين بشال الحرير الشامي، تفرد منديلها وتمـــضي بالغداء إلى الدكان، وفي بعض الأحيان تصطحبني وهيجر معها..

وعندما نعود عصراً تشدني أمي من أذني، وكذلك تفعل جدتي مع هيجر، ونخضع لاستجواب دقيق، نرد ولا نكذب.

- سألها عن الشغل في الدار وقالت له كويس

- وغـــــيره؟

- سألهـــــا إذا فيه مواسير متأخرة على العمال، قالت له كل شيء ماشي تمـــام والمواســـير كثيرة.

- وبعـــــديـــــن؟

- قعدوا يضحكوا واشترى لنا بوظة وبراد من أبو فتحي العيسوي، وأكلناها فـــي المخـــزن، علشان عيب النسوان يلحسن بوظة قدام الرجال في السوق.

تتلمـــــظ أمـــــي:

- ناس عليها الشغل وناس تلحس بوظة، وتلحس عقل رجالها في الليل والنهار.

وتنغـــــــم جدتي على نفـــــس الوتر:

- ناس بتبرد على حالها وناس بيزيد نارها ..

تتقصع زوجة خالي في الدار، توزع ابتساماتها الساخرة المتشفية، وحينما تميل الشمس نحـــو الغروب تكون قد امتلكت قرار التفجير

- الواحـــــدة بتروح اتغدي جوزها، حرام ولاّ كفر؟!

يرجع خالي من السوق يتفقد القاعة، ويعاين مطاوي الأنوال، يقدر ما عليها من قماش، يطمئن على سير العمل من جدي، تكون الدار الفوقا قد هدأت، الحجرات قد نظفت، والبوابير أشعلت لتجهيز العشاء وحمام الصغار..

زوجة خالي تدعك قدمي زوجها بالماء الساخن والملح ، ثم تصب على يديه ماء الوضوء ..

بعـــــد العشـــــاء تقدم جدتي الشاي يسألها عن الأحوال:

- الحمد لله كله ماشي بنَفَسك

تتمحـــــك زوجـــــــة خالـــــي

- يوه مصاريـــــن البطن تتقاتل يا ابن النـــــاس

جدتي تحســـــم الأمر بصرامة :

- المصارين الشبعانة تحمد الله وتشكره على ايش تتقاتل....

تستجيب الكنّة للهدنـــــــة:

- على رأيـــــك يا عمـــــتي ما فيش حاجـــــة تستاهل

يضطجع جدي على غليون البوص، يطير سحابات بيضاء فوق رؤوسنا ،يضحك هازئاً...

- نســـــوان قليلات عقل ودين ،من يوم امهن حوا ..

الجمل الحيوان العالي، تتقصع رقابنا لتحط أبصارنا على رأسه الصغير المعلق في الهواء، يلوك دوماً، شفته العليا مشقوقة تتفرج عن قواطعه وأنيابه الطويلة الصفراء، يأكل ضلوع "الصبر" وأوراق أشجار الغيلانا بأشواكها الإبرية، لا يحس بالبدوي الجالس على سنامه يبهرنا بأرجله الرفيعة الطويلة..

هذا الجمل تسمر بين قضبان السكة الحديد، لا يستجيب لصاحبه الذي قفزعن ظهره، طار في الهواء وسقط على الأرض فوق الدبش والحجارة حول سكة القطار..

يشد الرسن هلعاً..

يستغيث مبهوظاً من عناد الحيوان، غاضب يهوي بعصا المذراه على قوائم الحيوان وفخذيه وأسفل بطنه، صفير قطار الشحن يعوي، وعشرات الرجال يسحبون حبل الرسن مع البدوي دون جدوى..

يقذفون الجمل بالطوب وحجارة الزلط المسنونة وما وقع في أيديهم من قطع حديد وكتل خشب..

يهجم القطار، غول حديدي يجرف الحيوان ،يطويه، ويحبس الأنفاس في الحلوق.. وتمضغ العربات المقطورة اللحم الذي كان حياً..

كيف حدث ذلك، ولماذا أخذ الجمل قراره بالإنتحار ونفذه ؟ ومضى الى حتفه لم تصدر عنه صرخة، ولا حتى زومة متأفف...

هل صام على غله وأفطر على راحة أبدية وحسرة في قلب صاحبه؟ يقولون أن الجمل يصوم على حقده، يتناسى ولا ينسى، يكره الأسى والخديعة ولسان حاله يقول (عمر الأسى ما انتسى وانتو أساكوا زاد..)

كما تردد خالتي أم بشير عندما تأتي على سيرة الظالمين والمظلومين، ويقولــون إن الجمــل عندما يقرر يهبش خصمه بأنيابه يرفعه ويلوح به في الهواء ثم يطرحه بعيداً ويقف بجانبــه، وإذا نهض من سقطته أو صرخ فإنه يعضه في أحشائه أو يضغط بخفة على لــوح صــدره، والبدوي يخشى عضة الجمل (إذا جار عليه أو خايلته رعونة الآدمي) مهما امتــدت العــشرة وطال مشوار الرحلة...

فالجمل يصوم ويؤول الأسى إلى حقد مخزون يفيض في يوم معلوم، والبدوي هَبــر جــسم الجمل ضرباً ونخزاً ولم يزحزحه من بين القضبان، قدم له كل أسباب الهياج والإنتقام..

هل هو الخوف من غول الحديد الذي ينفث سواداً نارياً أم هو اهتزاز الأرض من تحته أفقــده توازنه، وقتل فيه فعل الغرائز فاستسلم وانتحر ؟..

فالجمال تصوم وتموت غيظاً...

على عادتنا بكرنا إلى المدرسة قبل موعد القطار، وتجولنا بين البسطات حول بوابة المدرسة، قلمنا أظافرنا عند الحلاقين المنتشرين على سور المقبرة، وتفرجنا على سحناتنا في مرايــاهم، وتابعنا تجليخ أمواس الحلاقة على السيور الجلدية..

فنحن زبائنهم نقايض على شعرنا بنصف رغيف إذا حلقنا رؤوسنا على الصفر أو برغيــف كامل أو ببيضتين إذا حلقنا على نمرة 4 تصليح وتنعيم وغرة على الجبهــة، نتحلــق حــول الحلاق إذا كان زبونه أحد العتالين أو العربجية أو الباعة الجائلين، ويأخذنا الفضول أكثــر إذا كان الزبون عنطوزاً من عناطيز الشجاعية يساوم علــى كــشط ذقنــه وتــشذيب شــاربيه (المتجاوزين حدود صدغيه ليقف عليهما الصقر) بقرش كامل...

أما اذا اقتصر الأمر على كشط الذقن وحف الخذين والوجه بالخيط فالأجرة لا تزيد عن تعريفة بيضاء مخزوقة .

من البسطات قايضنا خبزنا بالمخيط والتمور، ملأنا جيوبنا بقطين الجميز البوطي المتفل بدقيق الوكالة (دوده من عوده) نفتح القطينة اللدنة، وننفض الدود من حشوتها، ونمضغها مستحلباً بنياً لزجاً يسيل من أشداقنا، نمسحه بأكفنا أو أطراف أكمام قمصاننا، نتقافز، ونتسابق إلى خط السكة، نضع مساميرنا وأسلاكنا وقطعنا المعدنية وأغطية زجاجات الكازوز على القضبان...

في ذلك اليوم فردنا عدتنا على القضبان، وانتظرنا القطار، لكن الجمل تسمر..

واعتقدنا أن أحد خفيه قد علق بين فلنكات السكة، ولم يتوقف القطار رغم صراخ الناس وانطلق أبو عرب الجزار الذي حدس الأمر يصرخ بأعلى صوته يسمع الناس ويشهدهم:

- " حلل عليك الذبح ...الله أكبر"

مر القطار "وقامت القيامة " دلقت الشجاعية ناسها وسكانها، رجالاً ونساءً وصبايا، الجمل رأيناه نتفاً، بعض رقبته ورأسه الصغير مطروح على جانب السكة،عيناه لامعتان مشدوهتان حزينتان..

وأبو عرب يعيد ذبحه أسفل صدغيه.. رجل ينبه الجزار,

- سلامة عقلك يا "أبو عرب" الجمل يذبح من آخر الرقبة مش من عند رأسه ..

- وين هي آخر الرقبة يا فالح، المهم نحلل الذبح...

وفصل الرأس بأذنيه الصغيرتين عن بعض الرقبة..

الناس بالسكاكين والقفف والطناجر، يعيثون تقطيعاً وذبحاً في كتل اللحم المتبعثرة، يتعرفــون على بقايا الرقبة والكتفين والبطن يبحثون عن قطعة من فخذ أو يد، يتقاتلون على دهن السنام، يتناوشون ويشخرون، يؤجلون المهابشة والمنازلة والإشتباك، ينافسون على اللحم بدون سلخ..

ونحن بين الأرجل نجوس أدواتنا مناخيرنا وشفرات نبري بها أقدامنا، نقطع بها بعض لحــم وجلد.. صار الجمل مشاعاً ..

نقل إلى البيوت، لم يتبق منه غير آثار لحم وشعر وخبث أمعاء وحشوة بطن، وبدوي يبكي ، يقبض على حبل رسن الجمل، ورأس الجمل الذي احتفظ به أبو عرب حتى تخــف الهوجــة "وفجعة" الناس.

أستاذنا الشيخ الصوالحي يعلن فتواه ويريح ضميره:

- يا ناس يا مجانين ،الجمل فطيس،ولحمه حرام عليكم

أصـــــوات الناس ترد عليه بفتوى مضادة:

- أبو عرب حلل عليه الذبح قبل ما يقع

- ولو ، فطيس ولحمـــــه حرام عليكم

جرس المدرسة يعلن بدء اليوم الدراسي، يرفع الشيخ ردني قمبازه ويهشنا أمامه، يتمتم بصوته الرفيع، ويعصمنا من خطايا الكبار:

- اللي أخذ حاجة من لحم الجمل يرميه.. هذا فطيس حرام على المسلمين، الناس ضيعوا الدنيا والدين والناموس...

والناموس حشرة صغيرة بغيضة تتربع في رؤوسنا الصغيرة تهبر جلودنا، وتتعاون مع البــق على امتصاص دمنا ليل نهار..

ســــــأل أحـــــدنا:

- وايش علاقة الناموس بالجمل يا شيخ؟

قهقه الشيخ حتى دمع، بين ناموسنا وناموسه وأعجزه عدم إدراكنا الفرق بين الناموس المهاجم المسبب للبثور الحمراء على جلودنا، وناموس الناس الذي توارى ،فأكلوا الجمل المدهوس...

دفعـــــــنا أمامـــــــه:

- ايش بيفرق الناموس عن الناموس يا جامـــــوس

وذهبت مقولة الشيخ بيننا نكتة وأحجية نتذكرها كلما مر على الخاطر شــيخنا الــذي احــتفظ بالإجابـــــة لنفســـــه..

يســـــأل الواحد منا أترابه:

- ايش بيفرق الناموس عن الناموس يا جاموس

تستغلق الإجابة على السائل والمسؤول، ونكابر على قلة الحيلة هروباً من قصور الفهم:

- خلي الجاموس يرد عليك

وننتصر بتحويل الأحجية إلى نكتة ونغرق في الضحك...

صادر الوجع خطوات جدي، ولم يعد قادراً على المشي ولا الجلوس خلف دف النول، واضطربت أحوال القاعة والدار..

جدي الطويل مثل عود الزان، تدلى رأسه حتى وصل إلى سرته، لم يعد منتصباً مثل النشاب، وبات قوساً مشدوداً على الألم، لا يعرف النوم ليلاً ولا نهاراً..

خالي وأبي يكسران عناده، يمضيان به إلى الطبيب، ويعودان به محمولا..

جدتي تستقبله تسنده على صدرها، وتمدده في فراشه "بسم الله حولك وطولك.. ايش اللي هدك"، تشهق مع دمعة خالي التي نزت على خده دون مشورة..

يقذف قلة حيلته وحيلة الطبيب:

- الدكتور معندوش علاج

- هو في علّة ملهاش علاج؟!

- عرق النسا ما له علاج عند الدكاترة.. كل اللي كتبه الدكتور شوية مسكنات وأوصاه بالراحة.

تمدد جدي على فراشه، التقط أنفاسه وهدأ صدره، مسح المكان بعينيه،وحط على جدتي:

- جهزي لي فرشة رقيقة على البلاط، الوقعة في الظهر، ايش بدو يعمل فيه الطبيب.. "ربنا اللي حط هو إللي بيرفع.."

وتفرغت جدتي لرعايته وخدمته، وتنازلت عن أعمال الطبخ والعجين لكنتها، وغضت النظـــر عن نساء الدار، تحفظاً وتخوفاً من تقريع جدي العصبي من طول الرقاد، يتدخل في الصغيرة والكبيرة ويهتاج من ضوضاء الصغار من حوله.

حصة جدتي من المواسير تطوعت بها حسنة، وأبو رباح وأبو حسنة لا يـــشكوان مـــع شـــح المواسير مثل أحمد شمعة ورضوان العتيق اللذين يتخاطفان المواســـير عـــن دولاب زوجـــة خالي، الموزعة بين دولابها وأعمال الدار ومراعاة الصغار، جدي يصرخ على أمي:

- على ايش بتتفرجي، ساعدي امرأة أخوك.. والله الرحمة صدقـــــة يا ناس

- حاضر.. بس ارتاح..انت في وجعك ولا في الشغل

وتقوم متثاقلة إلى الدولاب تبرطم " كل واحد همه على قده"، مش بكفي البنات انفرن قبل مـــا يطلعن على الدنيا.. بكرة بياكلن وبيشربن من القاعة والنول...

أبو رباح وأبو حسنة يقضيان معظم وقتهما حول جدي يسليانه, يتذكران معه أيام زمان، وكيف كان يقطع البلاد طولاً وعرضاً يجلب الزيت من الجبل، ويبيعه إلى فلاحين في السهل..

يقطع صحراء سيناء ليبيع زيته على بدو بلبيس..

وفي يوم اشتد عليه الألم ،ولم يعد قادراً على كبح صياحه فقرر:

- هي موتة ... الكي ...الكي

- وحد الله شدة بتهون، الوجع ما بيقدر إلا على البدن العفي

وبعد ظهر الخميس حاسب خالي العمال في القاعة، وانطلق مع أبي حسنة وأبي ربـــاح إلـــى جباليا حيث مضارب البدو وعادوا آخر النهار بالبدوي..

رجل قليل اللحم والعظم، غائب في عبائته، رأس صغير مدور، وذقن بيضاء نافرة من جلـد مشدود جاف، أصابعه رفيعة طويلة..

جلس ولف من علبته المعدنية سيجارة أشعلها وقدمها لجدي:

- مش عيب عليك تقع يا زيات.. سقى الله على أيامك.. عاين هالدخان

شهق جدي السيجارة حتى ابيضت زهرتها، واحتفظ بالنفس في صدره طويلاً قبل أن ينفثه من منخريه:

- دخانك عايز رجال تقدر عليه يا بدوي.

- من الشعف أرض حَمار بعل ما ذاق ماء.

- الشعف بيظل ثراها رطب طوال الصيف.

- تقوم بالسلامة ،وتلحقني ،عمرك ما "تخرم"

مددوه على بطنه عارياً، سلسلة ظهره تنبض تحت جلده، تتقلص وتنبسط مثل عربيد العوسجة، تتوقف أصابع البدوي عند مواقع معينة،تضغط، فيجأر جدي..

تزحف الأصابع النحيلة تستقر عند الفخذ، تندس في اللحم فيعض المبطوح الوسادة..

قلبوه على ظهره، وثبتوا كتفيه، وفردوا الساقين على طولهما، قصع البـدوي إبهـام القـدم اليسرى، جحظت عينا جدي لدرجة الإغماء..

قال البدوي:

- غطـــوه.. بيلزمه ثلاث كيّات

صار الحطب جمراً، دس البدوي ثلاثة أسياخ مفلطحة النهايات..

ولف سيجارة وأخذ ينفث الدخان بهدوء، يتجاذب أطراف الحديث مع أبي رباح وأبي حسنة، خالي "ملخوم" بين أبيه وجمر النار في الموقد، أبي يراقب الأمر شزراً، ويكظم غيظه فهو يرى في الكي جنوناً، عرض على خالي أن يأخذ جدي إلى مصر، يعرضه على طبيب يعرف علته، لكن الجد أخذ قراره:

- عرق النسا ماله غير الكي.. وفروا قروشكم لعيالكم ..

- الدنيا اتغيرت يا حاج، وفي مصر تلاقي كل شيء

- زمان ما كان غير الكي.. ربنا يقدرني عليه

سحب البدوي الأسياخ من النار، صارت بلون الدم، بصق على نهاياتها فطشت اللعاب، ولم تنطفئ..

أعادها إلى النار وأوعز لأبي حسنة وأبي رباح:

- اقلبوه على بطنه

أبو حسنة يزجر خالي صارماً:

- خذ أمك وابعد عنا

همد أبو حسنة على كتفي جدي، وثبت أبو رباح القدمين، وجلس على الركبتين، خاطفة جرت العملية، سحب البدوي الأسياخ تباعاً، ولطع في ثلاثة مواضع حددها بأصبعه..

صرخ جدي مع الكيّة الأولى، وهمد ، لم يُصدر صراخاً ولا أنيناً..

نقع الرجل قطعة قماش نظيفة في الزيت ومسح اللحم المشوي

- غطوه ويبقى على بطنه ثلاثة أيام بلياليها..

وقضى البدوي ليلته يتسامر مع الرجال حول الكي والبشعة، وعلاج القوباء والدرن، وقضاء البدو والفلاحين، أحداث ومواقع ووقائع توارثها أباً عن جد..

وعن أرض الشعف الحمراء التي يزرعها دخاناً بعلياً، خالي صامت مشغول بجدي الذي غاب عن الدنيا، لا يظهر منه غير شهيق وزفير واهن، وأبي انسحب من المجلس يصب غضبه على أمي التي تبكي أباها المقتول:

- يرضيك عمايل أخوكِ؟

مع الفجر مضى البدوي بصرّة تحتوي قماشات شروال وقمباز وحطة، وجنيهاً ورقياً كاملاً ومضى قبل أن يتناول افطاره..

ثلاثة أيام والمبطوح على بطنه لا يصد ولا يرد، لا طعام ولا شراب اللهم الا قطرات ماء تقطرها جدتي فاطمة في فمه من شاشة مبلولة، تنظف رغوة بيضاء تفور من فمه وتتجمع عند شدقيه، في اليوم الرابع فتح عينيه وطلب الماء فابتهجت الدار، وطيرت جدتي الزغرودة، فتبعتها أمي وزوجة خالي، وامتلأت الدار بنساء الحارة، وبعد أسبوع نملّه ظهره، وراود جدتي أن تقشر ما جف من جلد مشوي، فردته بحكمة:

- ظهرك جلدة على عظمة بكرة ينشف ويقشر لوحده

وبعد أسبوعين جلس منتصب الظهر، وبعد أربعين يوماً بالكامل أخذ حمّامه ،وهبط إلى القاعة،ونزل في جورة النول...

فهاجت جدتي، واحتج رفيقاه بصرامة وصلت بأبي رياح أن هجم على المسدية، وخرطها بموسه الكباس، حتى يفوت عليه إمكانية حذف مكوك بين بوابات نفسيها

- هو انت لقيت حالك في الحارة.. يلعن الشغل ويوم الشغل مستعجل على الشقا..؟!

- إن شاء الله عايزني أقعد جنبك أسليّك؟! ولا أقعد ورا الدولاب مع النسوان ألف لك مواسير..؟!

وعندما استوى اللحم عند مواضع الكي، وترك لطعات برصاء على الجلد، طلب جدي من خالي أن يرافقه إلى الدكتور:

- خير ما انت طبت والحمد لله!!

- عايز أشوفه

وحدثنا خالي أن جدي شد على يد الدكتور بقوة وبادره:

- كيف شايفني يا دكتور؟

- زي الغزال ماشاء الله عليك

- وانت الصادق مثل الحصان.. أنا جيت أسأل سؤال

- تفضل يا حاج

- أنت دكتور واتعلمت الدكترة في بلاد برة

جـــــاراه الدكتور ضاحكـــــاً:

- بالإنجليزي كمان مش بالعربي

- كل غـــــزة تتحكـــــم عـــــندك

- اللي بيصلنا بنحكمـــــه

- وأنا مقدرتش تطيبني، وخلقة بدوي قد الكبشة لا تاخذ العين فيه ولا تعطي طيبني.. كيـــف بتشوفها؟!

- كل واحـــــد وعلامـــــه يا حـــــاج

- إيش رأيك أعرفك على البدوي علشان تحول عليه عيانين عرق النسا

قال خالي ان الدكتور "كيّف" على الختيار، وودعه عند باب العيادة، وشد على يده، وأعاد لـــه نقود الكشفية.

- أمانة يا حاج كل ما تشوف حالك فاضي تعال نتسلى

وفي يوم الجمعة صحا مبكراً، وتناول إفطاره، وطلب من خالي مرافقته إلى سوق الجمعة في الشجاعية :

- المشوار بعيد عليك، وانت طالع من رقدة طويلة

- طيب روح اشتري لي اوقية دخان عربي من البدوي

ورجع خالي من السوق بدون الدخان:

- البدوي بيقول لك دخان الشعف خلصّ

وبعد يومين كان البدوي عند جدي، وقد أحضر معه كيس دخان يكفيه حولاً..

وذهبت بينها صداقة، ولم يدخن جدي دخاناً غربياً إلا بعد موت صديقه، وظل يـــتهم تجـــار الدخان بالغش وخلط الدخان، وتحول إلى الأرجيلة يملأ رأسه بأنفاس التمباك التركي الأصفر يعلق على ما آلت اليه أحواله:

- علشان غش الدخاخنية صرنا أفندية ونشفط على الشيشة

ومات جدي عن ثلاثة أراجيل عالية الأعناق طويلة الخـــراطيم، جلبها له أبي من مصر فـــي سفراته

- 9 -

تمردت أمي وألصقت ظهرها في الحائط ، وفحّت في وجه أبي، تدافع عن زريفــة ولطيفــة اللتين ضاعت عليها فرصة الإلتحاق بالمدارس ، وسحبت الدواليب عافيتهما في دوامة القاعة والأنوال ...

أبي المبهوت من ثورتها على ناموس الحياة في الدار ، (فالنساء والبنات للخدمة والإنجــاب، والرجال عليهم المباطحة ليل نهار وراء الرزق والستر) ..

ناور وامتص غضبه قبل أن ترتعش كفه

- هذه حرفتنا أباً عن جد، قسمتنا ونصيبنا في الدنيا

- أنا عايزة أعلم بناتي الخياطة ، البنات كبرن واللي في عمرهن صــرن ينخطــبن، وهــن مفريات مسخوطات من الشقاء والتعب..

ولمعت في رأسه الفكرة ، واتفقا أن تتعلم الكبيرة زريفة، ثم تعلم أختهــا، وتعرفــت زريفة على حارة بني عامر خلف مدرسة الزهراء ، تخرج مع الضحى وتعود عند العصر..

تركت الثوب، وارتدت الفساتين تقصها وتحيكها عند مُعلمتها ..

أصبح لها صندوق صغير وأدوات...

مقص ودبابيس وابر وبكرات خياطة..وقطعة مثل الصابون تخطط بها على القمــاش والورق، وصار لها مسطرة كبيرة ومثلث خشبي طويل..

في الليل نتحلق حولها وهي ترسم الموديل على أفرخ ورق التجاليد البنية ، تحولهــا إلى ظهر وصدر وأكمام تخيطها بالدبابيس أو الإبرة تصبح فستاناً ورقياً جميلاً يبهرنا ..

وكانت زريفة محظوظة، فأبي يوفر لها ورق التجاليد من فائض ما تلف به البضاعة ، خاصة الورق المقوى الذي يبطن صناديق الساتان والتفتا الواردة من مصانع أولاد وهبة شوشة المتميزة بورق التغليف وتبطين صناديق الأبلكاج ..

ولم تجد زريفة مشكلة في توفير القماش الذي تتعلم عليه ، ففضلات القماش في القاعة كثيرة ، وفضلات الحرير والدولس والبوبلين في الدكان أكثر، ..

تفصل منها لصغار الدار...

مر عام، وتدورت ظريفة وأصبحت امرأة صغيرة ، لها غطاء رأس شفاف ترخيه أمام وجهها في الشارع أو السوق ، وأصبح لها شنطة يد، ..

وتجرأت على اصطحابي في بعض الأحيان الى دار المعلمة كوثر بعد أن توصيني بعدم الشيطنة، وكنت أتخيل أن للمعلمة سبورة وطباشير ومقاعد دراسية مثل روضة الشيخ فرج، المعلمة تعيش في دار صغيرة مع أمها وأبيها في الثلاثين من عمرها طويلة بيضاء ممتلئة ، ذراعاها عاريان محملان بالأساور الذهبية اللامعة وأصابعها الطويلة مطوقة بخواتم ذهبية كبيرة .

في غرفة الخياطة الفسيحة تفترش البنات الحصيرة ، تجلس كبراهن خلف ماكينة اليد تدرز وتسلم إلى المعلمة الرابضة خلف ماكينة الرجل العالية ..

أما البنات فيتوزعن بين اللقطة والتنظيف ، أو القيام على شؤون المنزل من كنس وشطف وعجين ، ومساعدة الحاجة في المطبخ وتحضير الطعام..

وعند الظهر تفرد البنات ما أحضرن مضافاً إليه طبيخ الحاجة ، تتناول المعلمة الطعام مع بناتها، يتسامرن ويشربن الشاي، ثم يحضرن الغرفة للزبونات اللواتي يتوافدن بعد العصر لأخذ المقاس وتجريب البروفات الأولية والنهائية قبل التشطيب...

وما بين المقاس والبروفات تدور الحكايات ، وتتناثر التلميحات والإشارات ، وتختزن البنات حكايات وصوراً وأسراراً وعندما يتعلق الأمر بجهاز عروس يصبح الأمر مختلفاً، وتشهد الغرفة حالة طوارئ على مدار الساعة ، ويفرض الحضور المبكر والعودة المتأخرة ، مع ما يرافق الأمر من توجس من العتمة والسير في الطرقات الخالية الموحشة ..

وفي بعض الحالات تستأذن المعلمة أهالي بعض البنات للمبيت عندها، بل وتصطحبهن إلى الفرح (الجلوة) فبعض الأسر تشترط على الخياطة مرافقة العروس ليلة فرحها، للإشراف على تغيير بدل الصمدة ووضع الإكسسوارات لكل بدلة وفستان من بكل وورود وتعديلات على المكياج... بعد كل رقصة مع العريس أو أمامه...

والسعيدة من ترافق المعلمة ليلة (الجلوة) فبالإضافة إلى الفرحة ، تفوز بالملبس والنقوط الذي يكون معتبراً عند العائلات الكبيرة .

زريفة أصبحت ضيفة في الدار ، لا نجتمع معها إلا بعد المغرب، عندما تقوم على تمارينها أو تقص الفساتين لبنات الدار والملابس الداخلية للنساء من قماش الباديستا الخفيف ، أو من التفتا والساتان...

وترفض تفصيل الشراويل الطويلة ، وتعتبرها ضرباً من ضروب الهبل، فالوقت أعفى الخياطات المحترمات من خياطة الكلاسين، الا اذا تعلق الأمر بملحقات أجهزة العرائس .

أمي، واحتراماً لآراء ابنتها الخياطة أصبحت تفصل شلحات، من التفتا والساتان المتوفرة في الدكان ، مما شعلل غيرة زوجة خالي القابضة على غلّها وغلبها غيرة وخوفاً من زوجها الذي يأنف من ولع النساء بالحرير والنايلون ، وهو المنحاز إلى الأقمشة القطنية...

فهي الأصل ، وما تكالب المدنيات على النايلون والحرير الصناعي الا مياعة، ومياصة وفراغة عين، وزيادة نقود...

ويرى فيهن متبرجات فاجرات، ويرى في أزواجهن طراوة وخراعة لا تتناسب مع شـــواربهم على وجوههم ويلخص فلسفته.

- تلاقي الواحد منهم ناتع شنب يقف عليه الصقر، وماشي مع امرأته مثل الدلـــدول، وهـــي محمرة ومبودرة ومكحلة تغامز البائعين، وتفقع كل ضحكة وراء أختها ..

أي هو اللي يمشي وراء النسوان بيظل فيه مراجل..؟!

جدتي فاطمة تفقســـــه غامزة ضاحكـــــة:

- المرأة قادرة تخلي راجلها مثل الأرنب في حضنها

- مش الكل يا حاجـــــــة

- كلكـــــم عند حاجتكـــــم أرانـــــب

عامان مرا على زريفة ، خياطة بدون ماكينة ، تقص مراييل المدارس والفساتين في الدار وتدرزها عند المعلمة ، تشهد المعلمة وتشهد نساء الحارة لها بالنباهة ونظافة الشغل..

وفي يوم طرحت أمي مبادرتها على أبي.

- أنا جمعت عيدياتي وعيديات البنات ، خذهن، وكمل عليهن، واشتر لزريفة ماكينة ، البنت كبرت وبلاش تظل رايحة جاية على معلمتها ...

- مش بدري عليها ، المصاري (النقود) مش مشكلة.

- ما هي تعلمت والمعلمة حاطة كل الشغل عليها من غير فايـــدة ، واذا احتاجـــت لـــشيء معلمتها مش بعيدة عنها ...

يوم مشـــــهود يوم شراء الماكينة ..

اصطحبني أبي مع أمي وزريفة عصراً إلى محلات الحاج ذيب الزعنون، في شـــارع عمر المختار، وكانت المعلمة كوثر قد سبقتنا لتساعدنا في اختيار الماكينة المطلوبة ، تملـــي شروطها على نايف لينقلها إلى الحاج صاحب المحل...

ونايف ليس غريباً عليّ، فقد رأيته في دار المعلمة أكثر من مرة ، يدخل عند البنات بـــدون احم ولا دستور، والبنات لا يغطين وجوههن عند حضوره ، سألت أختي يوماً ، لماذا لا تغطي وجهها عن نايف؟ ردت باستهجان

- هذا نايف مين بتغطي قدامه ؟

ولم أعرف سر نايف الوسيم الرقيق صاحب الصوت الناعم الهامس الأملـــس الـــذي يدور على الخياطات ليصلح عيوب الماكينات وينظفها ويزيتها ويقوم على ضبط غرزهـــا ، يوزع خبراته على البيوت ، ويمارس تجارته الخفيفة ...

فهو يبيع الإبر والدبابيس وبكرات الخياطة والأزرار والكباسات، ويقوم على كـــبس زراير القماش والورود ، ويطلع الخياطات علـــى آخـــر مـــا وصـــل مـــن مـــواد الكلـــف والإكسسوارات، وهو الذي يعرف البنات عند كل معلمة، ويمازحهن وكأنـــه واحـــدة مـــنهن، يوزع أخبار من خطبت ومن تزوجت ومن يقف ابن عمها في طريقها يمنع عنها العرسان...

ونايف حافظ الأسرار والعبقري في توصيل رسائل واشارات الخطـــاب والعـــشاق ، ويفسر خطوات النساء الخاطبات الطالبات البنات لأولادهن بالحلال وعلى سنة الله ورسوله ..

يتقمز ويوزع غمزاته بين زريفة وكوثر ، يغافل الوالد والحاج تحوطـــاً مـــن ســـوء التأويل يدلي بشهادته .

- هذه خياطة شربت الصنعة بدري ، شاطرة زريفة ..

يستدرك الأمر ويعطي كل ذي حق حقه

- والله الست كوثر بتعلم بقلب ورب ، وما بتحب مياعة البنات

تجرأ أبي وتوجه إلى المعلمة

- ايش رأي الست كوثر ناخذ لزريفة ماكينة رجل بالمرة ؟

- والله يا عمي إلليّ بيقدر على ماكينة الرجل ما يوفر ، الوقت تغير، وماكينة الرجل بترمي شغل كثير وبتريح.

واستقر الأمر على ماكينة سنجر وملحقاتها التي فندتها الست كوثر ، مقص ومكـوك احتياط ومزيتة وكوع تطريز وطارة كبيرة وأخرى صغيرة ومسطرة تفصيل ومثلـث قـائم وآخر منحنٍ، عاينتها مع نايف قطعة قطعة قبل أن تسلمها إلى زريفة...

ومارس نايف أستاذيته وأجلس الخياطة الصغيرة خلف الماكينة ، شرح لها طريقة التزييـت والتنظيف وتغيير المكوك ، وسحب الخيوط عندما تبلع الماكينة ، واستخدام كوع التطريز وشد القماش على الطارة وتغيير سن الإبرة الى آخر ما يتطلبه الأمر من ارشادات وتوجيهات ..

وانتهى الأمر بأن دارت الماكينة وأخذت زريفة تدرز على قطعـة قمـاش معـدة خصيـصاً للتجريب والتدريب.

وبدخول الماكينة الدار، فقعت أمي زغرودة طويلة، وأُعتبرت زريفة خيّاطـة الـدار والعائلة والحارة ، وأصبحت حجرة البنات ورشة للخياطة، وصارت زريفـة معلمـة ، أول بناتها لطيفة التي تركت الدولاب الى الخياطة ..

واضيفت لمهام جدتي نفيسة مهمة هش الصغار عن الماكينة ،والزعيق علينا طـول النهـار تفرقنا عن الخياطة حتى تتفرغ لعملها ..

ومع الماكينة دخلت على الدار عادات ومسلكيات جديدة ، تعلمتها زريفة من معلمتها كوثر ، تتعلق باستقبال الزبونات ، ولباقة ادارة الحديث من خلال تقديم القهوة والشاي ، ودخلت زريفة في المعمعة، وفرضت على أمي لباقات معينة لعل أهمها حبس لسانها عن المناكفات في حضور الأغراب .

في البداية كان الزبائن من أهل الدار والأقارب مما نغص على أمي حياتها ، وهي ترى ابنتها تعمل ليل نهار مجاناً ..

فالعائلة والأقارب لا يدفعون ولا يشاركون حتى بالخيوط والإبر والدبابيس ، لكن الأمر سرعان ما تغير، وتواردت الزبونات ترسلهن المعلمة كوثر التي خُطبت واختصرت من عملها استعداداً للزفاف.

خالي يراقب الأمر ، لم يعد بامكانه أخذ راحته في الدار وهو المفرع المدرع بشرواله وقميصه الداخلي خلف براميل القصرة والصباغ، أجبر على ارتداء ملابسه احتشاماً في حضور النساء الغريبات الغاديات الرائحات ..

فاض به الغرام ووقف لأبي.

– علمنا البنت وصارت خياطة ، ورضينا، ولو اني ماكنتش راضي عن غيابها في دور الناس ، وقلت وانت أبوها وحر فيها ، ولكن تشتغل للناس بالمصاري ، وتدخل علينا أشكال وألوان، احنا مش فقرا علشان نستنى شغل الولايا ونسمع كلام الناس ، وانت في الدكان مش قاعد في الدار... صارت الدار سوق جناكي والنسوان أشكال وألوان.

أبي يعرف طبع خالي وضيق خلقه ،وهو أكبر من أن يطمع في شغل البنت ، والأمر عنده ان البنت تعلمت الخياطة بعد أن فاتت عليها فرصة التعليم ..

بكل هدوء أصدر أمراً حاسماً وجازماً

- احنا مش لازمنا خياطة بمصاري ومتقبليش شغل جديد يا زريفة ، واذا عندك قماش مش مقصوص رجعيه لأصحابه.

جدتي نفيسة الجالسة على فرشتها علقت بصوت مسموع هذه المرة

- "كسرتوا خاطر البنت قبل ما تفرح على حالها ..حرام عليكو.."

أما جدتي فاطمة فقد حاصرت انفجار أمي واحتوت أختي المفجوعة بالقرار، قبلتهـــا وربتت على ظهرها..

- انت مش عارفة ، خالك خلقه ضيق من البنج ...

بكرة يهدأ ويروق أنا عارفة كله من المكبودة مراته ، مش طايقاها الشربة تلاقيها زنّت فـــي رأسه ..

روقي وأنا بأدبره ، المهم بلاش تعلق بينه وبين أبوكي وتقع على رؤوسنا كلنا..

وبعد أيام من ضبط الأعصاب وجدت جدتي الحل ووضعت ستارة تفصل مدخل الدار عن ورشة خالي ، تتيح له التفريع بالشباح والشروال عند برميل القصرة والصباغ والبوش.

تأجل ختاني ثلاث مرات ..

الأولى بعد أن اختطفت الحصبة أخي يوسف قبل أن يكمل الحول على صدر أمه ، والثانيـــة بسبب اجهاض زوجة خالي جنيناً ذكراً في شهره السادس على اثر انزلاق قدمها وهي تشطف بلاط الدار، أما الثالثة فقد أوجبها "شد" خاطـــــر الجيران وقد فقدوا عزيزاً عليهم مات عـــن مائة عام أو يزيد..

وفي كل مرة تجهض خطط أمي لفرحتها فلا تجد مندوحة عن التشبث بحكمة الأيـــام "لعله خير وكل تأخيرة فيها خيرة"

وبانتظار الخير دخلت عامي السابع، وقطع أخي أحمد عامه الثالث، وزال تخوف أبي من ختانه ، ويوم عدت من المدرسة بشهادة الصف الأول زغردت أمي، وداعبتهـــا فرحـــة الختان...

فاستجاب أبي بسرعة، وأوعز لجدي بشراء خروفٍ من سوق الجمعة على أن يكون الختـــان يوم الجمعة التي تليها، لأخذ الوقت اللازم للإستعدادات وتفصيل جلابيات الطهور وتطريزها ، وعزومة الأقارب والأصدقاء على امتداد رقعة القطاع..

وعلى مدار الأسبوع استضفنا فحلاً حولياً كث الصوف، ربط في جذع الدالية بحبـــل قصير لا يتيح له الخروج من حوض الدالية ، وعاش الخروف معززاً مكرماً على قشر البطيخ والصبر وحسنة الدار من الخبز الجاف اضافة الى الشعير المقرر ..

نلاعبه ونعلفه ونطعمه من أيدينا، ونحاول امتطاء ظهره الصوفي ننجح ونخفق ، ولا نستطيع الثبات على ظهره اللحيم ..

يعلو صراخنا فيجفل الخروف ، ويصاب خالي المنكبّ على عمله بالصراع، فيوسعنا ضرباً على أقفيتنا، ويلعن أمهاتنا الغافلات عنا ، تخلصنا منه جدتي فاطمة بعد أن تمتص غضبه.

- خليهم يلعبوا ، هو كل يوم عندنا طهور ، ربنا يطعمك بولد ونقطع له في حياتك .. يا رب يا كريم.

وفي منتصف الأسبوع هاجت الدار وماجت ، وانفلت عيارها مع حضور الخالة أم بشير وزوجها من مخيم رفح ، وطرحت على عقلي الصغير معضلة الأنساب، فكل من في الدار يناديها "يا خالة" أمي وأبي وخالي وزوجته وحتى اخواتي الكبار ..

خالة من هي، جدتي فاطمة تناديها يا أختي مرة، ويا لطيفة مرة أخرى ، وعرفت أن لأم بشير اسماً آخر هو لطيفة ، وعلمت بقدر ما استوعبت أنها أخت جدتي من أمها تربت في حضانة زوج أمها ، والخالة أم بشير هي قابلتي التي سحبتني إلى الدنيا ،وبشرت بي، وهي التي سحبت اخواتي وكذلك هيجر تحت التوتة ، وكتمت دمعتها من نصيب ابن أختها ، ووقفت بالمرصاد لأمي كي لا ترضعها حتى لو فقعت من الجوع والصراخ ، حتى لا تكون "قطاعة نصيب" وتدخل النار بقدميها وعملها ..

تؤكد وتحذر (اذا مصت بزك ثلاث مرات مشبعات تصبح أخته وتحرم عليه.. اذا أعطيتها بزّك يلحقك غضب الأب في الدنيا وغضب الرب في الآخرة ..اتركيهم لوقتهم ونصيبهم...)

بعد العصر تهدأ القاعة في الدار التحتا وتتوقف الأنوال، وتتزوي الدواليب في الدار "الفوقا" ويشطف البلاط، وتتحلق النساء حول أم بشير بطبلتها ..

يبدأ الغناء "والتسحيج " يلعلع صوتها ، فتتوافد صبايا ونساء الجيران ويعمر الفرح ، وفي الليل تتحول الدار إلى فندق ، وتشمر جدتي عن ذراعيها لإطعام الضيوف المقيمين والمغادرين...

وفي أسبوع الفرح أوقف خالي أعماله في الدار والتحق بالدكان، لم يأبه لاضطراب الأحوال في القاعة ونقص الخدمان وانشغال النساء عن المواسير والدواليب، لم يتذمر العمال ، فمنهم من أجاز نفسه طوعاً، ومنهم من اندمج مع جو الدار ووجد ما يشارك به في الفرحة...

وسمح أبو حسنة لابنته أن تقيم في البيت طيلة أيام الأسبوع ، أما أحمد شمعة فقد وضع نفسه وهمته رهن اشارة أمي واحضار ما يلزمها من السوق حتى كان يوم الجمعة، فتحولت الدار الى خلية نحل ، استيقظ الجميع مع آذان الفجر، وقامت النساء على كنس وشطف الدار ورش حوش الدار التحتا بالماء ..

وقام خالي إلى البلطة يكسر ويصلح الحطب لموقد الطهو ووجاق القهوة السادة وهيأت النساء الليوان الغربي للصمدة، وأما الليوان الشرقي فقد خصص لأعمال الطبيخ ولقانات المفتول..

وقبل الضحى كان جدي وأبو رباح قد سلخا الخروف، وقطعاه، وسلماه الى جدتي فاطمة ، أفطرنا أهل الدار والمعازيم على الجبن والعسل والمطبق الذي تفننت زوجة خالي في إعداده...

وبعد الإفطار قامت النساء الى لقانات المفتول وافترش الرجال الحشايا في حوش القاعة يتنادرون في الحكايات والسير .

وبعد الظهر عادوا من صلاة الجمعة في مسجد السيد هاشم بن عبد مناف ولما اكتمل النصاب قدمت الصواني للرجال المعازيم أولاً ثم للنساء والأطفال ...

وعند العصر ألبسوني وأخي الجلابيات البيضاء المقصبة والمطرزة بالعصافير والنخيل ، وقلدونا ما توفر من مصاغ (حبيه امي ومشخلع زوجة خالي ، وعقد جدتي فاطمة ومجيدية من شطوة جدتي نفيسة...)

وبدأت حلقة الرقص ..والنساء مكحلات مزوقات (على سنجة عــشرة) ووزعــت أم بشير بياناً تحذيرياً

- اللي مش متزوقة تقوم تزبط حالها بلا لكاعة

وتكسر حاجز الحياء عند بعضهن وخاصة الصديقات والنسيبات البعيدات

- الواحدة لها في حياتها ثلاث فرحات ، يوم دخلتها ويوم ما نقطع لبكرها ويوم مــا تــدخل عليها كنتها في الدار.

ترشدّها احدى العجائز.

- خافي ربك يا أم بشير ،ويوم زيارتها للحبيب المصطفى

- وايش جاب فرحة الدنيا لفرحة الآخرة ، فرحة الحج حاجة ثانية الله يطعمها لكل مشتهي..

وأطلقت زعرودة طويلة مسحوبة من قاع قلبها "وهاهت" وعــددت رجــال الحمولــة مبتدئة بأبي بشير تاج رأسها وغرة رجال المجدل ، وأسبغت على الرجال ما طاب لهــا مــن الكرم والشهامة والرجولة تتناغم مع زغاريد النساء مع كل مهاهاة وشوباش وترديــدة ، ورد أبي التحية مؤهلاً مسهلاً بالمعازيم وأطلق مشط رصاص من أمشاطه الثلاثة وسمع صــوت الالمانيه لأمره مرة منذ خرج بها من المجدل ...

ورد عليه محمد فارس بصلية من رشاش الكارلوستاف ،وحلف يميناً أنه "قشّطه" من دليل بدوي غدر بهم وكاد يسلمهم لليهود، فجردوه من سلاحه وذخيرته،وشبحوه على جــذع شجرة جميز، وعادوا ولم ينفذوا العملية ، فقد هجسوا أن الدروب مرصودة والكمائن منتشرة..

همس في أذن أبي:

- النصيب . رصاص البدوي كان مفروض يقتلنا واليوم نطخه في طهور الأولاد ..عمر الشقي بقي يا ابن عمي

سحبت زوجة خالي أمي وأخذتا ترقصان متقابلتين في انسجام غريب على دقات خفيفة أخذت تتسارع مع نغم الأهزوجة..

آه ياللي يا للي ...جابلي الكردان يا للي .. . والشمعدان يا للي، جاب لي الهدية يا للي .. حلق وحبية يا للي ..جاب لي المشخلع يا للي من ذهب الشام يا للي

رقصتا بالشمعدان والأباريق المسدودة فوهاتها بعروق الريحان والنعنع البلدي ونوار الرمان الأحمر، ..

فاعت الطبلة ونزلت النساء والصبايا الراغبات إلى الحلقة ، ووصل الفرح ذروته عندما داهم صابر الحلقة ومعه ياسمين "النورية" ، رقص معها فاصلاً هبل النساء وطيّر غيرتهن ..

حتى قرصته أمي من خاصرته فرحة..

- ولك يا مدَهوّن جايب النوريّة يا أبو الفضايح..؟!

- ليش فضايح ، حرام نُرقص في طهور اولاد عمي ، خلينا نفرح ، احنا عارفين وقتيش يصير فرح في العيلة ونلتم على بعض.

نز عرقه من كل جلده ، ودارت ياسمين ذات العيون السود ، والشعر الخيلي من حوله، قبلت ذراعه عند الكتف، وكشفت للنساء "المبهورات من جرأتها " على وشم رسمته على ذراع الفتى...

فارس على حصان يحتضن صبية ترسل شعرها الطويل مع الهواء ، وكتابه تعلــن بؤس الحالة وحرارتها "صابر أبو عوض بطل يبيع الدم" ...

وصابر داهمه الصداع يوماً ، فطرحه في خيمــة روجينــا ، شــهقت النوريــة الأم، وضحك زوجها القهقير صانع المناجل والشواكيش والمناسيس ومشذب البلطــات والفــؤوس والطواري..

قلب جفن الشاب الطريح وعاين بياض عينه ، ورشق ياسمين شزراً ، فانزوت تحبس دمعة ساخنة

استنجد القهقهير بالناس ونقلوا صابر إلى المستشفى ، حتى لا يقعوا في دمه واسئلة الحكومــة وانتظروا بيان الطبيب

- الولد مثل الفحل ، قوة دمه سببت الصداع والإغماء، زوجوه أو خلوّه يتبــرع بدمــه ، اذا هاجمه الصداع ..أو اذا شعر بدبيب النمل في عروقه...

تلقفت روجينا الأمر .. وسمسرت على دمه وصدرته زبوناً دائمــاً عنــد بوابــة المستــشفى المعمداني ، وانضم الى باعة الدم تخلصاً من ضغطه وهياج بدنه ..

وفي الليل يهدأ على صدر ياسمين ، ينام على فخذها اللدن، تغلق عليــه رموشــها الطويلــة وتلعن أمها والقهقير وسكنة النور...

وتحددت عناوين صابر بطل يبيع الدم بين قشعة القهقير فــي الــشجاعية والمقهــى المواجهه لبوابة المستشفى ..

رأس ماله ذراعه القوي، ووشم يعلن عن فارس وفرس وحورية تعتصم بحضنه..

بعد صلاة العصر حضر المطهر ..

مددونا على طبلية قصيرة ، باعد صابر ما بين فخذي وأشار إلى السماء..

- شوف الصقر كيف حامل الحمامة وطاير بيها

نظرت إلى السماء ، لم يكن هناك صقراً ولا حمامة ..

وسال دمي ،وانطلقت الزغاريد، وقهقه صابر اللعين بعد أن انطلت على الخدعة.

- الصقر أخذ الحمامة وطار .. مبروكة عليه شايف كيف الطهور سهل يا سبع

وتمددت على الفراش يلعب ريح العصاري في بدني ، حريق يسري ما بين فخدي..

لا أعبأ بالمنقطين والمنقطات يدسون النقوط تحت وسادتي ووسادة أخي ...

ومنهم من دس نقوطه في جيب الجلابية المبقعة بدمي الراعف ..

غادر المطهر المكان مع زغايد النساء، وظلت الدار تطبل وتزمر أسبوعاً تغص بالزوار والمهنئين ...

يتفتق السؤال في رأسي ..هل كل هؤلاء أقاربنا ؟ وهل حمولتنا كبيرة لهذه الدرجة ؟ وأرهفت أستوعب موال أم بشير وهي ترقص بالسيف أمام أبي

البكرج اللي انتصب رنت فناجينه
رجل بلا عزوته بطلت مراجيله

في الخميس التالي قام المطهر بغياره الأخير، وقرر جفاف الجرح، وسمح لنا بارتداء البنطلون بعد الاستحمام في البحر..

وعلى الشاطئ كان الأمر عائلياً ، ونصبت الخيمة ، واكتشفت يومها كم هو خالي ودود وأليف، حملني على ظهره وتشبثت برقبته، جدف بي في الماء حتى ابتعدنا عن مضرب الموج ..

صار البحر بركة هادئة ..

مددني على بطني فوق ذراعيه ، وأخذ يعلمني العوم، ويلقنني أسرار الماء ...

سألته متى تعلم السباحة وهو الذي يقضي نهاره في القاعة مع براميل الصباغ والبوش، فأخبرني أنه شبع السباحة والعوم في بحر عسقلان...

حدثني عن شقاوته وصباه عند أعتاب الشيخ عوض ، وحدثني عن باب الدارون ووادي النمل وسيدي الحسين ..

كان عفياً، وكان البحر قد غسل جهامته وشتت ضيق خلقه ..

خرجنا من الماء ولازمني الإحساس بأنني أصبحت رجلاً ، وصرت أكثر صرامة من هيجر ، ولم أعد أجاريها الى لعبة العروس والعريس ، أرتبك ويسربلني خجل لا أعرف سببه كلما رشقتنا عيون نساء الدار ونحن نلعب بين أكوام الغزل في الليوان الغربي

وفي ذلك الصيف ، نزلت أمي عند رغبتي، وفصلوا لي بنطالاً طويلاً بدلاً من الشورت ، وفصلوا لهيجر قبة بيضاء ومريولاً وسجلوها في المدرسة قبل السن القانوني بعدة أشهر...

أبي يفوز بعضوية أول مجلس لاتحاد أصحاب مصانع النسيج، ويحسم الجولة مع منافسيه مع أبناء العائلات المجدلية المعروفة، الضاربة جذورها في التجارة وحرفة النسيج ، شجعه على دخول مغامرة الإنتخابات صديقه جعفر فلفل صاحب مصنع "المنار" والمبادر لتشكيل الإتحاد، وخاضت العائلة الحملة، وتجلى نشاطها في أماكن انتشار الأنوال والقاعات في التفاح، والدرج، والشجاعية، وامتد إلى القاعات الصغيرة في مخيمات الشاطئ، وجباليا، وتم تجييش الأقارب والأصهار والأصدقاء...

ولأن عائلتنا معروفة بكثرة إنجاب البنات، فقد تفرع أصهارنا في معظم حمائل وعائلات المجدل، وصرنا أخوالاً لعدد كبير من الناس صغاراً وكباراً انتصروا لترشيح أبي، وكان لدعم أصحاب القاعات الصغيرة أثره في حسم المعركة ، إحساساً منهم بأن أبي صعد من بينهم، وأصبح صاحب قاعة كبيرة، وتاجر غزولات وأقمشة، ومستورداً يرضى بالقليل ويبسط يده لهم بالدين، ولا يتأفف من استقبال إنتاجهم وتسويقه بدون عمولة في محله...

وأدى موقع الدكان في شارع فهمي بيك، بالقرب من سقلة "أولاد الشيخ سلامة" دوره أيضاً، حيث كانوا ينقلون بضاعتهم بعد سقلها إلى الدكان، يبيعونها لزبائن أبي يوم الجمعة، ويتركون المتبقي منها برسم البيع، واعتبارها دفعة من دين، أو عربوناً لمشتريات غزل قادمة، ومما رفع أسهم أبي لديهم وجود السدايه (الدوارة) في قاعتنا، وانبهارهم بجرأة أبي الذي انساق إلى فكرتها ونفذها، بعد أن عرض عليه النجار خليل سحويل تصميمها المعدل عن كتالوج عثر عليه في ورشة النسيج التابعة لمدرسة الصناعة(التي أنشأتها الأونروا)...

حيث يعمل مدرباً للنسيج، وقارب سحويل بين سداية الكتالوج والسداية الآلية التي تعمل على الكهرباء في مصنع المنار، وبلوّر مع خالي فكرة تصنيع سداية يدوية، وتم ذلك بسرعة وخُصص لها الجزء الغربي من القاعة...

وصارت ورشة قائمة بذاتها نصبت حولها القوائم الخشبية المزروعة بالمرادن الطويلة تشك فيها المواسير الحبلى بالخيوط، تتفلها حول الهيكل المثمن ذي الأصـــابع الخـــشبية الملـــساء المعقوفة لأعلى...

وحلت السداية مشاكل السداء في الشوارع والطرقات، ومواجهة طوارئ البرد والمطر شتاءً وجفاف الريح والهواء الذي يقصف الخيوط المنشاه صيفاً، ووضعت حداً لتحرشـــات المـــشاة ولصوص الخيوط من الصبيان والسفهاء، والتي أسفرت أكثر من مرة عـــن طوشـــة عامـــة جرجرت عائلات العمال وعائلاتنا إلى مجالس العرف والعادة، نخرج منها غارمين تعويـــضاً عن رعونة العمال، ونخسر ما تقطع وتخربش من الغزل في الطوشة ، فأبي (بحكمتـــه التـــي تعلمها من السوق) ينساق إلى الحلول ويأخذ من جانبه، ولا ينساق وراء غضب خالي وتصلبه في الرأي...

وفي البيت يفرض رأيه أمام جدي (إحنا تجار وكرشتنا في إيدين الناس لازم نأخذ بجانبنـــا.. الناس معسورة لا وراها ولا قدامها..)

يؤمن جدي على كلام أبي تحوطاً من الشر (الشر شرارة وفي المال ولا في العيال.. اللهـــم ابعد عنا شر ابن آدم..)

وفي ركن السداية كان الأطرش عيسى ملك المكان، يسمع ما يريد سماعه لأن أذنـــه اليمنـــى مخرومة، يقوم على حساب خيوط السداة وعدد المواسير مع كل دورة وعدد الدورات، وتتجلى عبقريته عندما يتعلق الأمر بالأقمشة الملونة، مثل الفرش ومقاطع المجدلاوي، ويصبح الأمـــر لديه غاية في الدقة والسرية عند سداء القنابيز والغبانيات..

وعندما يحل المسدية عن الدوارة نتحلق حوله نتفرج على رقصة التطبيب، كان طويلاً نحيفاً، يعقد طرف خيوط المسدية شرابه ، يقبض عليها بأسنانه ويلفها حول ساحله ينزل بهـــا إلـــى صدره ويقوم بحركة لف الخيوط إلى (كرة) مرتبة بتناسق...

ونعجب منه كيف يقدر على حملها وقد زادت عن دائرة ذراعيه الطويلتين...

وعندما ينتهي تصبح الخيوط على شكل قدر كبير ضخم، يسلمها لأبي محمد كفينه " الملقـــى" الذي يبدأ عملية اللقاية بعد انتهاء الأطرش عيسى، الذي يقطع نهاره واقفاً...

وأبو محمد كفينه يمضي نهاره هابطاً على مقعدته يلظم الخيوط في عراوي النير ثم يسحبها بالسنارة الخشبية من بين شفيرات المشط ويعقدها كلما أصبحت عقدة (العقدة 20-40- خيطاً) وعندما يشك المشط بالعقد تكون المسدية جاهزة للتركيب على النول، ويـــصبح الأمـــر مـــن اختصاص الأجير أو صاحب النول...

أبو محمد كفينه كان يأخذ تعليماته من خالي، أو من صاحب المسدية، فأصبح يتلقى التعليمات من الأطرش الذي يمارس عليه سطوة المعلم لدرجة تثير حنقه، وتصادر عليه خبرته، التـــي نشرت صيته في طول المجدل وعرضها، يعلو الشجار بينهما ونكتشف أن الأطرش عيـــسى يسمع، ونعجب نحن الصغار الذي نكون قد أشبعناه سباباً وبذاءات بافتراض أنه لا يسمع، ولم نكن نشعر بالخوف أو الجزع، لأنه لم يحدث أن اشتكانا لأهلنا، أو حاول طردنا..

ولأن جدي لا يتدخل في شئونه، يعلق ضاحكاً(عشنا وشفنا الأطرش بيسمع على كيفه..)

وتحبك القفشة بين الواقف والقاعد" والأطرش عيسى هو الوحيد فـــي القاعـــة الـــذي يلـــبس البنطلون...

أما بقية العمال فقد كانوا يعلقون قنابيزهم ويمتطون الأنوال بالشراويل صيف شتاء..

ولأن عدد الأنوال في القاعة لا يكفي لتشغيل الدوارة أكثر من بضعة أيام في الشهر، فقد اجتهد أبي (وعلى غير رغبة من خالي) في استثمارها، والسداة لأصحاب القاعات الأخرى، فتوارد الغزل من الخارج، ودخلت علينا وجوه جديدة، وعلا نجم الأطرش في فضاء صناعة النسيج، وظهر تأثيره في معركة الإنتخابات وفاجأ الجميع باندفاعه وحميته في التجييش لصالح أبي في المعركة .

أبي، وقد أصبح عضواً في هيئة النقابة صار يردد ما يسمعه من رئيسه جعفر فلفل، وينـــشغل في التخطيط لحماية صناعة النسيج وتطويرها فشجع العمال على الالتحاق بدورة محو الأمية التي فتحت أبوابها في مدرسة صلاح الدين ليلاً، وقد شجعهم أيضاً انضمام خالي لدورة متقدمة في نفس المدرسة فهو تعلم في المجدل للصف الثالث، وتبرع للعمال بالأقلام والدفاتر اللازمة.

أما الرسوم فقد سددها الإتحاد عن العمال، أبي دخل عالماً جديداً أوسع من عالمه الموزع بين القاعة والدكان والسفريات إلى مصر..

يقابل المسئولين والحكام..

وفي يوم رجع من الدكان بلفة ورق كبيرة، وأعلن عن مغامرته المؤجلة، فقد أخـــذ قـــراره بالتنازل عن القمباز الى البدلة والبنطلون..

ولأول مرة نرى أبي أفندياً، ارتدى البدلة وربطة العنق حول رقبته الرفيعة، بعـــد أن دربـــه الخياط صبحي مرزوق على ربطها..

وصار لأبي قمصان بيضاء يذهب بها إلى الكواء لتنشية ياقاتها، وربطات أكمام، وصار لـــه دبابيس مذهبة يحتفظ بها في علبة بلاستيكية ..

يومها تمشّى في الدار جيئة وذهاباً محشوراً في البنطلون ومحاصراً بالحزام الجلـــدي حـــول بطنه، يكابر على رهبته وخجله، ويتحاشى النظر إلى خالي المتبرم من قفزته الواسعة وتنازله المفاجئ، أمي تدركه بزغرودة طلعت من عمق صدرها الفرحان:

– أيوة هيك القالب غالب، فشروا الأفندية.

ودشن بدلته بمقابلة الحاكم العام، مع وفد للنقابة ليعرضوا تصوراتهم ومطالبهم...

ضارباً عرض الحائط بتحفظات خالي على فكرة الاتحاد من أصلها، والذي لا يرى فيها أكثر من فلسفة أفندية لا تسمن ولا تغني، تورط الغلابا مثلنا، وتجعلنا نلبس ثوباً غير ثوبنا يلخص رأيه:

" لنشوف آخرة الجري والجرجرة وراء بياعين الكلام، إحنا أولاد كار، ما بيرفعنا إلا عرقنا, ما لنا وشغل الأفندية اللي فاضيين لرص الكلام وقلة الفعل.. وهذى آخرتها نتحزم بـــالبنطلون ونشنق رقابنا بشبرة حمرا يا خوفي يكون أول الرقص حنجلة "

وحققت النقابة أول انتصاراتها باستصدار قراراً يمنع استيراد المنتوجات التي تنتج نظائرهـــا محلياً، وحدد مجلس الإتحاد المالطي (الخـــام)والـــشاش، والتوبيـــت والباديـــستة والزوفيـــر ،واستبعدت من قوائم الاستيراد ،ورفع عنها الدعم على الواردات من مصر والذي يصل إلـــى 30% من أسعارها في مصر..

وبقدر ما كان أبي سعيداً متباهياً بالقراروالإنجاز، كان خالي حانقاً غاضباً ومصاباً بخيبة الأمل لدرجة الانفجار في وجه أبي العائم على بهجته..

- "دجاجة نفرت على رأسها عفرت" ، وإيش يبقى لنا نستورده يا فالح، روح اقفل الـــدكان واقعد أنت وصاحبك جعفر على شوية غزل .

كانت الأقمشة الممنوعة تشكل معظم ما يستورده أبي من مصر، فهي عماد الأقمشة الـــشعبية الرخيصة التي تتناسب مع رأس ماله وزبائنه أيضاً، ولكنه لم يكترث، فالسوق في عرفه يفرز قوانينه ويسد ثغراته، والرزق محسوبعند رب العباد..

ولكن خالي بحسه النسيجي أخذ يفكر في بدائل محلية للأصناف الممنوعة، وقبل أن يجـــرب أول مبتكراته أغرقت السوق البضائع المهربة، ونشط مهربو منطقة رفـــح، الـــذين يهربـــون الصوف والساتان والشركستين من غزة إلى مصر للاستفادة من فروق الدعم ...

أصبحوا يهربون الأصناف الممنوعة إلى غزة، وتردد الحديث في الدار عن سوق سوداء وأرباح كبيرة، وضرب للأصناف البديلة على الأنوال اليدوية، وفشل مصنع المنار في توفير البدائل، لأن تجهيز البضاعة والصباغ كان يتم في مصر، ويزيد من التكاليف مع فرق الجودة أمام الأقمشة المصرية، ولم يصمد للمنافسة حتى مع أسعار المهرب منها.

مما الحق خسائر فادحة بالمصنع أدت إلى انهياره في نهاية الأمر ،وأكدت تخوفات خالي

(لا صيفة صيفت ولا عرض نابها ..لا استوردنا ولا إحنا قادرين نوفر المطلوب..)

لكن أبي الذي نفذ إلى التجارة من باب الشطارة، والجسارة، لم يرضخ لشروط المهربين واستغلالهم، وجد طريقه لاستيراد الأصناف الممنوعة تحت مسميات أخرى، واتفق مع الشركات المصدرة على تثبيت الأسماء الجديدة على فواتير وكشوفات التصدير..

وكلفه الأمر كثيراً، أما في غزة فقد كان الأمر مختلفاً عند تخليص البضاعة من جمرك المحطة، ووجد سبيله إلى جيوب المفتشين عند معاينة البضاعة ومدى مطابقتها للمواصفات ، يأخذ عينات يرفقها مع الفواتير والأوراق، وتتم العملية شكلياً وعلى مرأى ومسمع العاملين في الجمرك، وفي آخر النهار يشرب الموظف المحترم قهوته في الدكان، ويستلم عمولته عن كل صفقه...

ولم يجد أبي في الأمر تعارضاً بين قناعاته بالنقابة ومشاركته في السوق، باعتبار أن لكل قوانينه وأعرافه، وأن للسوق فنونه وجنونه، وبالإضافة إلى إيمانه بتواضع الأنوال الخشبية أمام عالم الصناعة في مصر، وأن عالم الخيوط أكبر من عالم أهل المجدل بخبراتهم المتواضعة، وأوسع كثيراً حتى من طموحات صديقه جعفر فلفل الذي ضرب في أول معركة ، وتحير أبي في تفسير تبرم صديقه جعفر من البضائع الممنوعة على أرفف الدكان..

كما لم يجد صعوبة في إقناع خالي بالكف عن التفكير بالبدائل بعد أن اصطحبه إلى مصر لخلع عينه، ودار به قبل العملية على شركات ومصانع النسيج في المحلة الكبرى وكفر الدوار وكفر الزيات ومصانع أولاد وهبة شوشة للحرير.

واتسع السوق، فالتحق خالي بالدكان، وترك القاعة لادارة جدي...

لأن سفريات أبي إلى مصر قد زادت بحثاً عن أصناف جديدة، إضافة إلى الغزل والقطنيات الشعبية، تجرأ على الأصواف والحرير، ونجح في إقامة صلات جيدة وتحقيق امتيازات مع مصنع شوشة ومصانع "اسكوا"، وتفرد في استيراد أقطان التنجيد من شركات الغزل أو المحالج...

ساعده على ذلك ابن عمه حامد الذي ترك مهنة التنجيد في البيوت، واستأجر دكاناً كبيرة في سوق فراس ليبيع الأقطان للمنجدين يساعده في ذلك أن أشهر المنجدين في القطاع من عائلتنا..

وخاصة عمنا أبو السعيد الذي يعتبر شيخ المنجدين.

يزورنا محمد فارس كثيراً، يتسامر مع خالي حتى ساعة متأخرة، تقول جدتي أنهما مثل التوأم لم يفترقا إلا في الهجرة، سكن محمد مع أهله في مخيم جباليا، يترك لنا رشاشه الكارلو ستاف بعد أن ينزع خزنته الطويلة، ويودعها في "الجربنديه" الكاكية مع الرصاص...

يعطيها لجدتي لتبعدها عن متناولنا، يرفع الرشاش لأعلى، ويضغط على الزناد خشية أن يكون مخزناً رصاصة في بيت النار، أشبح حزام الرشاش على كتفي، فيشحط بوزه على الأرض، انشغل به، أتفقد أجزاءه، أتمدد خلفه، أصوب على أهداف، أطلق صليات من فمي "بب طاخ"..

أقضي على فلول اليهود الهاربين يتساقطون مثل الجرذان، يُبقّون الدم من أفواههم، ومن أجسادهم المثقبة برصاصي الوهمي..

أخوض معركتي وأتمنى لو يشاركني صديقي عودة، بقيادة محمد فارس العملاق، أراه أكبر وأضخم من أبي وجدي وخالي الذي يشبعني ضرباً على قفاي، الرجل ربعة يميل إلى القصر، قوي البنية، يلمع سنه الذهبي في سقف فمه المظلل بشاربه الكث..

يقولون أنه لبس سنة قشرة ذهب عياقة شباب وغندرة أمام الصبايا..

يضحك من أعماقه عندما يناوش جدتي نفيسة، يستدرجها ولا يمل سماعها، يأتي لها بالأخبار والعلامات دائماً، ينبش أيامها:

- بتسلم عليك يا حاجة والسلام أمانة

- أنت كذاب ، مثل الليّ خلفوك، هو عندك مراجل تصل عندها

- بأمارة الخلخال المغربي

تسح دموعها على وجهها، تتقصف شفتاها مثل طفل ضيع أمه، تعتصم بمسبحتها، تسقطها حبة حبة، وتلهج بأدعية لا نتبين معانيها، يخرجها أبي من حالتها..

لا تمل من تكرار الحكاية ولا يمل أبي من طرح السؤال:

– وهان عليك الخلخال تعطيه لها؟

– كله علشانك، ما هي أول ما بشرتني فيك، قبل أبوك والمغربي

– ليش هي مكشوف عنها الحجاب ؟ والله ضحكت عليك العمشة

– اسكت أنت ايش عرفك، هذا شغل نسوان ..

تطمئن لعدم وجود غرباء في المجلس، تتابع:

كلكم أولادي من مين بدي أستحي؟ دست المرأة يدها فيّ، وجستني، ولما سحبت يـدها منـي قالت:

" أنت حامل يا نفيسة "
واللي في بطنك ولد باذن الله..

هي بتعرف حبل البنات من حبل الأولاد..

أيامها كنت عطشانة للخلفة ووحدانية بين المجدلاويات، لا عندي دولاب ولا جـوزي وراء نوله ،كان سريحاً يغيب، وعلمه معه..

تركني أيامها وحسرتي على الولد الثاني ما بردت..

وبعد ما جستني أم محمد العمشة رجع أبوك حامل بشارة المغربي ومعاه الحجاب، قلت المرأة صادقة ويدها مبروكة.. ولما ارتفع بطني طلبت مني الحلوان، وحليّ في عينهـــا الخلخـــال، المجدلاويات ما بيعرفن الخلاخيل، قسمتها ونصيبها:

- وأبويا ما فقدش الخلخال ؟!

- وايش دخله في شغل النسوان، والخلخال جبته معي من دار أبوي، لا دفع فيه أبـــيض ولا أسود..

اشتراه أخويا الحاج حسين من القدس، لطرد الجنية التي كانت لابسة جوزي الأولاني علشان متلحسش عقلي مثل ما لحست عقله، دستور يا حبيبي يا رسول الله, الشيخ قال لأخوي خليهـــا تلبس الخلخال، وفي المشوار الجاي هات معاك نسيبك نعمل له عمل..

يوه يلعنها من سيرة.. راح الله يرحمه بعمله.

- جوزك الأول ولا الثاني؟

- الله يرحم الجميع

كلما عاد محمد فارس من جولاته، يبلغ جدتي سلامات أم محمد العمشة، ويتحدث عن المرأة التي رفضت تسجيل اسمها مع الناس عند اليهود الأنجاس، عندما قاموا بإحصاء من تبقى من الناس في المجدل...

وعندما رحّلوهم إلى اللد والرملة وغزة طردوها من بيتها، فلجأت إلى خـــصها فـــي الكـــرم طرف البلد، وعرفت عند اليهود بالعربية المجنونة، تهش أغنامها وتسير بجوار حمار أبـــيض لا تركبه، ولا تحمل عليه غير جرة الماء، ولا تطعمه التبن أبداً...

تعلفه من الحشائش الخضراء، والبقول البرية، وثمار التين، وكيزان الصب...

الفدائيون المتسللون إلى المجدل، يمرون بالخص، يتزودون خبزاً وجبناً وزيتوناً وماء، يتركون علاماتهم، فتلحق بهم عند الآبار والبوايك المهجورة، وصواريف الصبر، تزودهم بالأخبار، وترصد لهم الطرق، والمسارب، وتعود إلى خصها..

في كل مرة يحدث محمد فارس خالي تفاصيل ما جرى له في العملية، وكنت أتساءل عن الفرق بين العمليات التي يقوم بها محمد فارس وأصحابه مع اليهود ، والعملية التي أسفرت عن قلع عين خالي من وجهه في مصر..

يتحدث محمد ، ويكتب خالي ولم يخطر على بالي أن الرجل لا يقرأ ولا يكتب، وأنا الذي أعتبره رجلاً خارقاً، يعرف كل شيء، ويتعامل مع كل لغات الأرض، في كل مرة يقّبل يد جدتي ويطبع قبلة على رأسها، يتركها مع دموعها، وفي كل مرة يحضر معه الأمارة والإشارة...

ثمار جميز من الكرم الغربي ، قطعة جبنة من حليب سخلات عنزتها الشامية التي رمت الحبات، وهرمت ولم تهن على أم محمد، فلا هي باعتها، ولا هي ذبحتها، وحرمت لحمها وثمنها على العرب واليهود...

وظلت الشامية أمام الخص حتى نفقت بعد رعدة قوية كادت تهدم قبة السماء سبقها ضوء برق أضاء الدنيا، وقبل أن تزخ السماء ماءها أسلمت العنزة الروح، ولما رتبت جدتي الأيام والفصول، حددت موت عنزتها بيوم الثلجة التي أدركت الناس في الهجرة.

وفي مرة أحضر محمد فارس خصلات من شعر أبيض ناعم، تعرفت عليه شعر بطن الجحش..

كبر الجحش وصار رهواناً، وقامت إلى مغزلها وغزلت من الخصلات حبلاً رقيقاً أودعته في الصندوق، وأغلقت عليه...

نجري وراء خيالاتنا الطفلة، نطارد اليهود مع محمد فارس يصارعهم، ويطويهم، يطــرحهم أرضا، ويقطع أطرافهم...

كنت أعتقد أنه ابن عنتر بن شداد أو ابن شمشون الجبار، سألته يوماً:

- إيش بيقرب لك شمشون يا عمي

عبث بشعر رأسي وضحك..

- طيب إيش بيقرب لك عنتر بن شداد

يغرق في الضحك، يقهقه، تلمع أسنانه الذهبية، يتلوى لسانه الأحمر السميك في فمه:

- يا حبيبي هدول ماتوا من زمان.. على أيام جدود جدودنا

ويحدثني عن دليلة، وكيف قصت شعر شمشمون، وسحبت قوته، وعن عبلة، ولماذا وقعت في حب عنتر وهو العبد الحبشي الأسود...

ولا يحدثني عن مغامراته، وعن الفدائيين الذين يعبرون الحدود من وادي بريدعه، ومن بياره الباشا، يعبرون إلى البلاد ينفذون العمليات، ويفعلون العجائب ويعودون في نفس الليلة، وكنت أتخيل اليهود "مقطشين " بلا أنوف ولا آذان، يخفون وجوههم كما يفعل العتال الأقطش، الذي ضيع أذنه اليسرى في "طوشة"، عندما هجمت عليه امرأة وعضته ،ولم تتركه الا وأذنه فــي فمها..

بعد أن طعن ابنها بالشبرية، ونثر مصارينه قدامه،..

وبعد الطوشة عادت مصارين غريمه إلى بطنه، وغابت أذنه من رأسه..

لم يغضب من لقبه، يجاري محرم الكندرجي:

- قديش أخذت دية لاذنك يا أقطش؟

- ولك هو أنا كنت بأفكّر في ذاني، ولا في الرجل اللي لولا لطف الله كان راح فيها، وحملت دمه ليوم القيامة.

- مش عيب عليك امرأة تأخذ أذنك!؟

- ولك هي امرأة، والله بتهد على السوق كله

- طيب بينفع أفصل لك واحدة كاوتشوك بدلاً منها.

يضحك الأقطش، ويمضي إلى حال سبيله، يحدث نفسه بصوت يسمعه التجا والباعة

" تقوم تضربه الكل يلومك..
يقولوا لك هو حدا يتمرجل على محرم، ما أنت عارفه كرخنجي ومسخرجي"

وفي يوم سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب.. كان الوقت فجراً، وكان الطارق محمد فارس منهـــك ممصوص:

- افرشوا لي بدي أنام..

عند الظهر صحا، دخن كثيراً، بكى وارتمى على صدر جدتي نفيسة، أخرج من جيبه شيئاً لم نتبينه، فصرخت ووقعت مغشياً عليها..

فركوا في أنفها بصلاً مهروساً، ورشوا على وجهها الماء..

صحت صامتة ساهمة، محمد فارس يبحث عن براءته، ويبكي:

- كنا في بيارة أبو خضرا في بايكة البئر، وعند الفجر سمعنا أجراس أغنامها مـــن بعيـــد، خرجنا لها، ولما اقتربت منا، فتحوا علينا نار جهنم، سقطت الولية, خردقوها..

سحبتها إلى البايكة، كانت مع الله ..

أخذت كيسها من عبها، وشلّحتها الخلخال من قدمها..

يا الله ما أشد بياض لحمها.. عمري ما شفت امرأة في بياضها..

تقولش صبية بنت أربعتاشر مغسلة باللبن ، مددتها تحت الدالية، وانسحبت ألحق الرجال على طريق الجورة بعيداً عن كمائن اليهود .

وأخرج كيساً قماشياً مزموماً بحبل دكة من حرير مجدول، أخرج منه بعض مجيديات وورقة عقد قرانها موقعة بختم الشيخ عثمان زقوت، وحجة شراء الكرم بخط وشهود حـــسن عـــايش الكاتب والموثق، وسند أمانة بعشرة جنيهات فلسطينية مودعة طرف المختار، بتاريخ يعود لما قبل الهجرة بسنوات..

وفي قاع الكيس حفنة من بذور اختلف أهل الدار عليها، ولما تشممتها جدتي أغمى عليها من جديد..

وعندما صحت أخذت البذور وأودعتها في صندوقها وأشهدت الجميع :

- نذرن عليّ لأزرعهن مطرح ما وقعتِ يا أم محمد.

ودقت محمد فارس في صدره، بغلٍّ راحت تضربه:

- تركتها وحدانية يا عايب عزت عليك المروءة والمراجل، يا خسارة شواربك، استخسرت فيها جورة وحبة رمل تدفنها وتستر لحمها، تركتها للوحوش واليهود يتصببوا عليها..

بكى مثل الأطفال، غسلت دموعه وجهه وشاربيه، قبّلها في كل وجهها يستغفرها:

- رصاصهم نزل علينا مثل المطر، موت أحمر يا حاجة.

عقدت جدتي وربتها السوداء حول رأسها أربعين يوماً، لم يلامس جلدها غير ماء الوضوء، وفي ليلة الأربعين حنت كفيها، ونهضت مبكرة، واستحمت، كحلت عينيها، وغيرت ملابسها، وأخذت من أبي نقوداً، وحملت ما استطاعت حمله من خبز الدار، وسحبتني معها إلى المقبرة..

وأقرأت الشيخ محمد مهدي جزءاً كاملاً على روح الفقيدة، ثم وزعت الخبز وما اشترته من تمر وقطين على أصحاب النصيب، ووضعت ما تبقى من نقود في يد الشيخ محمد، وقفلنا عائدين إلى الدار قبل صلاة الظهر.

غاب أبو حسنة عن القاعة، وغابت حسنة عن الدار، وركبت العفاريت الزرقاء أحمد شـــمعة، وصار يقاتل ظل وجهه، مثل الحبة في المقلى صاعداً إلى الدار الفوقا هابطـــاً إلـــى القاعـــة، يتمحك بالنساء بحجة نقص المواسير، يتسقط خبراً عن الغياب المفاجئ، بعد أن فشل في التقاط ما يشفي غليله من جدي، أو أبو رباح في القاعة..

جدتي لم يعجبها حاله، وقفت له عند الدرج قبل أن يصل إلى الدواليب، وحشت عبه بمواسير تكفي لتشغيله طول النهار وتزيد..

احمّر وجهه وتأتأ..قالت:

- هذه مش حجة مواسير.. يلا بلاش ولدنة، كل شوية ناطط عند البنات، ايش خليت للزعران ؟! انهبلت ؟!

وقرصته في أذنه، وشوشته :

- الغائب حجته معه، والقلقان بيسأل بدل قعده القهاوي والصرمحة مع القمّرجية.

غاب الرجل طوال الأسبوع، وفي يوم الخميس، وبعد صرف أجور العمال، انطلق جدي إلـــى المخيم، ولم يرافقه أبو رباح متعللاً ببعض شؤونه...

ولما رجع بعد العشاء تحدث عن سعال، وقذف دم، ولفحة برد شديدة، وكاسات هواء ألـــصقها بظهر للرجل لطرد البلغم، وسحب البرد من بدنه حتى هدأت أنفاسه وغفا، وأوعـــز لجـــدتي بتحضير القربة ومستلزمات اللبخة (من لبان ذكر ومر بطارخ وعين زاروط) وبعض السيرج البلدي "لوازم التمريج" قبل وضع اللصقة ..

وتحدثوا عن رجل ممصوص هجمت عليه الأيام، وعن بنت وحدانية، أخذ السل أخاها، ونثرت الغارة لحم أمها على أشجار الكرم وصبر السياج.

وعندما عاد أحمد شمعة للقاعة فحّت جدتي في وجهه:

– روح طل على الرجل، علشان نتقدم للبنت بعد ما يقوم من وقعته.

– من وين ؟يا حسرة ؟العين بصيرة واليد قصيرة.!!

– الله يعمي عينيك ويقطع ايديك، وين شغلك، وإنت طول النهار مربوط وراء النول، وبترمي شغل أكثر من حمار، وين شغلك يا هامل .

ودخلت غيبة الرجل في أسبوعها الثاني ولم ينقطع جدي وجدتي عن زيارته, وفي يوم تحدث جدي مع خالي عن أبي رباح، الذي طلب يد حسنة على سنة الله ورسوله بالمهر الذي تطلبه، وموافقته على تسجيل كرمه باسمها عند حسن عايش الكاتب بدل مؤخر الصداق..

واعتبرها جدي خطوة جيدة للرجل والبنت وامتثالاً للقسمة والنصيب، يسوغ حكمة الأيام وقضاء الله وقدره.. " يا سلام كله بأمره " يوم ما عقدت على فاطمة (جدتي) راح يطلب بنت العربيد، فوقف له ابن عمها المتزوج، أصله يومها لعب مع أبو رباح التبان، وأبو رباح بطحه، وفعفل رأسه في الطين قدام الحاضرين..

وطفش أبو رباح من البلد، ولما رجع كانت آمنة مولودة جديد، قلت له استناها، ضحك، وقال أنا بدي أستنى آمنة ؟ بكرة النصيب بيجي، وان شاء الله أجيب لها عريس..

وراحت الأيام، وكبرت آمنة، وخلفت زريفة وأبو رباح داير في الفلاحين يغيب ويحضر..
قلنا له: استنى زريفه...
ضحك وقال: هو أنا بدي أظل من غير امرأة لما زريفة تصير عروسة..

واليوم حلت قسمته في حسنة..

وأبوها بيشاورني، قلت له:

"اذا له نصيب فيها بياخذها وسترة البنت ولا بوارها.. والبنت استوت"

قاطعته جدتي مستهجنة محتدة:

– ايش يعمل فيها قد أبوها، يلعب عليها مثل عروسة جبصين، هو بيقدر عليها، بنـــت عفيـــة وصبية، تدفنوها بالحيا

– اسكتي، والله عنده مروّة بتطرح شباب اليوم، اللي زرع في عظمهم طحين الوكالة ..

ويسوغ تعاطفه مع رغبـــــة أبي رباح

– راجل مقطوع، لا بنت ولا ولد، وهي مقطوعة مثله، بيدللها، ويفرح عليها، والمرأة ايـــش بيلزمها غير الدلال والأولاد.

– وأبوها موافق؟!

– مصيره يوافق ، ما هو اليوم ولا بكرة بدو يجوزها لأبي رباح ولاّ لغيره.

– والله تظل مثل الأرض الوقف ولا تقع مثل هالوقعة .

وانزوت من وجه جدي قبل أن يهيج، وصار أبو رباح حكاية الدار، نعيد اكتشافه ونفتش عن حكاياته ونوادره، نراقبه وكأنه هبط علينا من السماء...

يبهرنا بقمبازه النظيف وذقنه الحليقة دوماً، وشاربه الرفيع المحفوف فوق فمـــه الــضاحك، ونعجب من خديه اللذين يطفح منهما الدم، وقد سحبهما على الخيط عند الحلاق تحت السدرة، ولقط شعيراتها بالملقط..

أما شعر رأسه فقد صار فاحم السواد، لا يكترث لتعليقات العمال، يبتسم للأطرش، ويحـــسده على طرشه الإختياري

"يا بختك بتسمع إللىّ بيعجبك .."

يزيد عليه العمال عيار المزاح فينط من جورة النول إلى حوش القاعة يدق قدميه بالأرض

(الراجل منكم يرميني الأرض..)

ينهره جدي

(اقعد بلاش هبل عامل طاووس، ما حدا لعب في زمانه تبان غيرك..)

يؤكد ثقته بنفسه ويتحدى

(ومين كان فيكم يبطحني)

يغيظه جدي

"العربيد غلبك والا انت ناسي.."

أحمد شمعة خلف نوله لا يشارك العمال هيصتهم، يتمتم بصوت يسمعه العمال من حوله

(والله لولا يقولوا تتشاطر على واحد قد أبوه لأقوم أمرغه في التراب، وأكحت صبغة رأســـه.. هذا الشايب انهبل..)

وعاد أبو حسنة إلى النول، وعادت حسنة إلى الدارالفوقا، تلتف حـــول نفـــسها مثـــل الـــدودة البردانة، يتلون وجهها مثل حبة البندورة المخبوصة عندما يأتي الحديث على سيرة الـــزواج والعرسان ، وأبي رباح الغاوي..

تترك الدولاب إلى غرفة الخياطة، وتغرق في دموعها صامتة..

لا تعود إلى الدواليب إلا بعد أن تعود الأنوال إلى إيقاعها، وتغرق النساء خلف الدواليب فـــي الصمت، وفي يوم أجهشت على صدر جدتي في الليوان الغربي، مسحت دموعهـــا، وربتـــت على ظهرها، هدهدتها حتى هدأ وجيب صدره، وعاينتها حتى تبسمت، وداعبتها حتى شـــرقت بالضحك وقهقهت وصفا وجهها وعادت إلى دولابها، لا تأبه للعيون من حولها..

وما هي الا أيام حتى طوح جدي طعام العشاء بعيداً، ونثر الأكل في قاع الدار، هربت جدتي من أمامه إلى حجرتنا، وأغلق أبي عليها الباب، حتى لا يطولها بحزامه الجلدي العريض..

– هي ايش خصها تفسد البنت على أبوها، ماله أبو رباح ناقص إيد ولا رِجِل

أبي يشد خاصرته من الضحك، وجدتي متنمرة تدافع عن نفسها بحرقة ما بين الثورة والبكاء

– هو ابن خالتك صحي على حاله وبدو واحدة من دور بناته، يروح يدّور له على عزبة، تقوم بواجبه، وتحفظ شيبته.

حسنة ترفض أبا رباح، وأبوها يمتثل للأمر، ويزيح حجراً ثقيلاً عن صدره، ولكنه يشترط أن لا يكون العريس أحمد شمعة حتى لو دفع وزنها ذهبا، وطلب من جدتي أن تقطع رجله عـــن الدار الفوقا، حتى تقطع الألسنة ولا يصبح هو وابنته مضغة في أفواه النا ..

وصرنا نسمع زعيق أحمد شمعة بين الحين والحين مواسير ياللي فوق..

تضحك حسنة من أعماقها، تحملنا المواسير..

نتلفت من حولنا، ونهمس

"خذ المواسير من حسنة"

وعندما تهدأ القاعة، ويغادر العمال الأنوال، يتفقد جدي المطاوي، ويطمئن على مواسير الغد، ويتوقف عند نول أحمد شمعة..

يقهقه:

- الكرخنجي طول النهار بيزعق، وعنده مواسير تكفيه جمعة..

ويحدث نفسه بابوه وريح شباب عابر..

شباب ظهره حامي.. وبنت مثل فلقة القمر.. بيحق له يصرخ لما تطلّع روحه..

وفي يوم وشوشت جدتي محمد فارس، ضحك حتى كاد يغمى عليه، وأخذ يضرب كفاً بكف :

– أما ختيارية خرفانين، والله لو عملوها كان ما وقف لهم غيري، وليش البنت ما أخبرتني مش أنا أخوها في عهد الله!

ولما سألت جدتي، كيف يكون أخوها في عهد الله ؟ أخبرتني أن محمداً أسعف أبا حسنة يوم أصيب في معركة نسف الجسر عند الدوار الشرقي، وحمله على كتفه إلى مقام سيدي الحسين، ونادى أبا صبحة ليخرج الرصاصة من فخذه..

يومها أعطاه حسنة، ولم يوافق محمد أن يتزوجها ضرة على بنت عمه، وحرمها على نفسه طول العمر، وآخاها في عهد الله، لها حقوق الأخت يعيدها في الأعياد، ويسأل عنها ويزورها

في المناسبات، وهي لا تغطي رأسها أمامه ولا تخجل منه عندما يقبلهـا علـى رأسـها، ولا يسحب يده عندما "تبوسها" .

وإلى المخيم انطلقت الجاهة من محمد فارس وأبو أحمد شمعة وأبي، ينتظرهم أحمد شمعة في مقهى سدرة الخروبي، ولم ينضم جدي للجاهة اعتباراً لخاطر ابن خالته، ولم ينـضم خـالي اعتباراً لخاطر أبيه، أما جدتي التي طبخت الطبخة فقد التزمت الدار، وكأنها لا تـدري مـن الأمر شيئا، وعندما عادوا من المخيم سحبوا أحمد شمعة عن القهوة، وأكملوا السهرة عند جدي يتحدثون في أمر الخطبة ونوادرها قال محمد فارس:

أول ما شاف الناس معي وانقلب عياره وزفر وزعق:

- ان شاء الله جاي تخطب أختك لابن شمعة

- ايش قلت؟ ..طالبين ايد أختي حسنة لأخوي أحمد شمعة

صمت الرجل.. ثم نطق مغلوباً على أمره:

- والله وعرفت مين تجيب معك يا أبو أحمد، طيب يا محمد، أنا موافق، وشرطي اللي ياخـذ بنتي يسكن معي في الدار

استنجد أبو أحمـــد بالناس والناموس:

- وايش يقولوا الناس عنا؟!

- هو أنت ملاقي مطرح وين بدك تجوزه..؟

- نبني له غرفة في التوسيعة قدام الدار

- أنا قلت بنتي عندي، اللي شاريها بيشتريني ، أنا راجل وحداني والاّ عايزني أدور نـسوان آخر العمر..

مازحـــــه محمـــــد:

– أي هو أبو رباح أرجل منك ؟ قوم شاور على احسن عزبه وأنا أخطبها لك

– اسكت يا محمد أي هو بعد اللي راحت في نسوان؟ من يوم ما دفنتها حرمت علىّ النسوان ليوم الدين.. كفاية تقليب مواجع.. الله يرحم أمة المسلمين

وانتقلت حسنة إلى غرفة الخياطة تتعلم التفصيل والخياطة من زريفة، وتكتفي مـــن الـــدولاب بتحضير المواسير لنول أحمد، وظهر الخميس تقف لخالي تأخذ أجرته قبل أن يمد يده، تنفلت إلى الدار الفوقا..

يلحقها..

تعطيه مصروفه وتودع الباقي لدى جدتي فاطمة التي تهشه

(والله بدو يصير لك بيت وإبريق زيت يا هامل)

تضحك حسنة ويصعد الدم إلى وجنتيها يصبغها صفاء ورغبة..

مهزوم باختياره ينذر ويتوعد:

– شوفي لك يومين يا بنت الرفضي، والله لأخليك تشتهي الرجعة على هالدار

– هذا اذا حكمت وتمد له لسانها..

نكركر ونزيط نحن الصغار، حتى يلعلع صوت أبو حسنة من حوش القاعة.

ولك انزل بلا لكاعة ومطاقعة نسوان، وأنت يا بنت انهبلتي مع هالهامل ..والله مـــا تـــشوفي أسود منها وقعة.

أما أبو رباح فقد اختفى من القاعة، وظل نوله شاغراً، يزور جدي في آخر النهـــار بعـــد أن تكون القاعة قد طردت عمالها وأعمالها، جدي يطلبه إلى نوله، يستدرجه

(على الأقل خلص المسدية المنصوبة على النول)

أبو رباح انتقل الى قاعة المدهون في الشجاعية (انتهت الرزقة في قاعتكم)، وبقيت مـــسديته على النول حتى أكمل جدي ما عليها من مقاطع الجنة والنار...

وبقي النول عارياً من الغزل إلى أن قلع مع غيره من الأنوال عندما تم تقليص العمـــل فـــي القاعة.

البراندة تصل الليوان الشرقي بالليوان الغربي، شمالية تفتح عليها أبواب غرف الدار ونطل منها على منبسط بيارة أبو راس الخضراء على مدار العام، المحاطة بنطاق التين الموازي العسلي، غابة كروم الزيتون الروماني العتيق في أقصى شمالها الغربي يمتد إلى بطن حارة التفاح، الجابية مقابل حارتنا تحاط بحقل الخس شتاءً والملوخية والبامية صيفاً..

يندا ح البصر إلى سواطيح وأحواش وادي التفاح، منعرجات الأزقة تتفرع لتلتقي عند حواف بركة قمر المنخفضة شرقاً، يمتد سهل الوادي إلى حارة المشاهرة وسكنة الزرقاء على حدود مزلقان المحطة، حيث يقبع بيت المحولجي ذو السقف القرميدي الأحمر..

في الصباح الباكر تغلف أبخرة الليل، وسحابات الندى مهاجع القطارات والمستودعات، وتموّه هامات أشجار الكينياء السامقة الرمادية، وفي البعيد البعيد تستغلق الأشياء على أبصارنا وعقولنا تصبح نمارين تناوش فيه السماء ..

جدي يصحو مبكراً، يتمشى في البراندة جيئة وذهاباً، يبسمل ويحوقل بإيمان ندي

(أصبحنا وأصبح الملك لله وحده..) ،

يستقبل النهار الوليد، فيسحب رجال الدار من الفراش، ويصادر على الزوجات تثاؤباً وتمطياً وتناوماً مناوراً، وفي الصيف يشتد الحر، وتترك أبواب الحجرات مواربة لنسمات الريح الشمالي الرائقة في أواخر الليل، وفي الشتاء تغلق الأبواب ويحشر أسفلها بقايا بطانيات وقطع خيش ومماسح لرد البرد، كي لا يخر في العظام ويؤسس للبلاوي والأوجاع..

وفي الشتاء أعتصم في حضن أبي، أتحوصل مثل دودة شفها الهواء في شقها...

أمي تستوعبني في فراشها لضرورات الوقت، وتحوطاً من عاداتي السيئة في رفس الأغطية...

أصحو من نومي الثقيل وقد انتفخ بطني، وزودني مغصاً واسهالاً وقيئاً، أو بولاً يبلل ثيابي وفراشي، ويغسلني خوفاً وخجلاً، يعذبني أمام ذكورتي الصغيرة، يعيرني أهل الدار، تفرح البنات بي شماتة (عامل علينا راجل يا أبو شخة)!!.

كان الوقت يطل على الفجر، ولم أرفس الأغطية، ولم تخذلني مثانتي، لكنه البرد والهلع تخثرا في بدني، مدفون في حضن أبي تحت اللحاف، أمي ترتجف، وباب الغرفة مفتوح على مصراعيه في عتمة آذار...

تصلنا خطوات جدي، وهمهمات في العتمة، وميض لا تعقبه قرقعة المطر ولا فرقعة الرعد بعد البرق، أمي تتعوذ من الشياطين، تحضنني ،وتحصن المكان بالفاتحة وياسين والصمدية والكرسي، وما تحفظ من آيات القرآن الكريم كاملة أو منقوصة ..

تصلنا أصوات جدتي فاطمة وأبي وخالي..

يعبرني ذعر أمي المميت، أقذف جسدي إلى الخارج أتشبث بساق أبي وأنفجر عويلاً..

زخات رصاص ثم طلقات متقطعة..

أبي يحاول التعرف على نوع البنادق، وخالي يميز صليات الرشاش، دبات خشنة وانفجارات مكتومة ..

يتوقعون المواقع بالخبرة أو التخمين.

- الحريق في الكيمياء حول مستودعات الفحم والبضائع في المحطة

أبي يخادع حواسه، يتحايل على هواجسه، ويضلل رؤيته، ويسحب المكان عند حدود بركة القمر .

- في ال أي.بي.سي. حريق مستودعات البترول وانفجار براميل الزيوت

خالي يغربل الأصوات في جوف الليل يؤكد:

– يا ناس هذه معركة، مالكم نسيتوا أيام الهجرة والحرب ؟

جدي مبهوظ عاجز:

– هجرة ثانية، وين بدنا نروح هالمرة..

تذوب بقايا الليل فيّ، يزحف الفجر بطيئاً لزجاً، وتموت دبات الإنفجارات، يبهت قرص النار في شمال الدنيا من الأحمر إلى الأصفر، أعمدة الدخان تصل الأفق شمالاً، الـسماء تمـتص صوت المؤذن المشروخ، تنتشر رائحة الموت واللحم الآدمي المشوي، ومخاوف الرحيل..

تنمو خطوات الناس في الشوارع، تهليل وتكبير، استغاثة ونجدة..

تقذفنا البيوت إلى الحارة

(اليهود هاجموا المحطة ، وذبحوا الهجانة، وزرعوا الألغام، وأشـعلوا المـستودعات، ثـم انسحبوا)..

مطر يزخ لزجاً ثقيلاً ثقل الأسئلة، كيف دخلوا؟ كيف عادوا؟ وماذا فعلوا؟ وكيف عاثوا؟ أين حاميات الحدود؟

المغاوير والفدائيين، ومذبحة في دوار القرم، براميل تدحرجت على الاسفلت فجرت سـيارة النجدة، ونثرت جثث الجنود عند البوليس الحربي..

سلاح أبيض، رقاب فصلت عن أجسادها في الدشم، والمرابض ، ونقاط الحراسة، ومواقـع المراقبة..

المعركة، واليهود يخلفون الضحايا ويعودون بلا خسائر معلنة أو غيـر معلنـة، والاذاعـة الإسرائيلية تبث أغاني أم كلثوم وليلى مراد وصباح وشادية الدلوعة...

غزة تجمعت في ساحة محطة قطار الركاب في الشجاعية، هتافات تنادي بالثـأر والتـسليح والمقاومة، تسب وتلعن وتجرمّ وتخوّن، جنود مخذولون يطوقون الأمكنة، يمتثلون للأوامـر، ويسدون المنافذ، تتحرك جموع الناس صعداً إلى شارع عمر المختار...

رجال ونساء أساتذة، وأطباء وتجار وأطفال وعمال وعتالون ورواد سوق وباعة وتلاميـذ، حتى "النَور" طيّرهم الفزع والموت من قشعهم في الشجاعية فاندفعوا غرباً بعد ذبـح حاميـة الدشمة أسفل تبة المنطا، وقتل الشاب النّوري "شكرون" مع الشاويش طلبة، والجندي الصعيدي مثقال صاحب أدهم الشرقاوي، تصل المظاهرة ميدان الساحة (فلسطين)، تتوقف...

يرفدها جموع من حارات التفاح والزيتون والفواخير والمنشية والصبرة، ومن توافدوا مـن مخيمات جباليا ومخيم الشاطئ (العودة العودة حق الشعب) أطياف القتل والهجرة، ومتاهـات البراري والصحاري وسيناء فم أسطوري...

وصمت عربي وخذلان، وخيانات وجيوش عربية هزمت، وأنظمة عربية تاجرت وباعـت، وثورة في مصر، وضباط أحرار، وفي غزة مذبحة...

وادارة مصرية، تنام على حلم كبير وتصحو على قتل وفقر ودم وطوابير إعاشـة، وجنـود الثورة يحاصرون المظاهرة، يركبون السواطيح تحفزاً وتخوفاً من الانفجار...

ومشروع أمريكي للتوطين في سيناء، ومعونات أمريكية في عبوات من كتان أبـيض رسـم عليها كفان أزرقان متشابكان فوق شعار (ليس للبيع ولا للمبادلة) من الذي لا يباع ولا يبادل المعونة أم الإنسان؟!..

تصعد الهتافات ،تردد الحناجر المسرسعة المصروعة:

لا توطين ولا إسكان نرفض حكم الأمريكان

تشبثت بمعصم أبي، أقذف صدري ورئتي صراخاً وهتافاً، الأقدام تدق الاسفلت، لا أفهم مـــاذا يعني التوطين والإسكان والأمريكان، أهتف خلف الشاب الأسم المعلق مفتوح الصدر يـــوزع الهتافات..

تهرول المسيرة باتجاه سوق فراس، جندي أرعن فوق سطح تل الزهور يطلق الرصـــاص، يتكوم الشباب متقباً نوافير دمه تصبغ وجوه الشباب، ترشقني دفقة من دمه في عيني، تـــصبح الدنيا حمراء، أبي يطير بي إلى عيادة الإسعاف في المستشفى المعمداني..

أدفن رأسي في صدره، أشهق خوفي، يزيح الدم عن وجهي، تتراقص الأشياء غشاوة حمراء، يتأكد أبي من عدم إصابتي، ويعود بي إلى الناس، يحملني على كتفه، يلحق بأهزوجة تخلقـــت من أفواه الناس ، وأطلقها معلم الحساب محمد زاهر :

في هـــــبة أول مـــارس ثرنا على الإحتـــلال
وبرصاص الكلب الحارس استشهد حسني بـــلال
يا حســـــني يا ثائـــــر سمع صوتك للجماهير
سمع صـــــوتك لأمـــك واهتف معنا للتحرير

عادت المظاهرة أدراجها إلى مقبرة الشهداء عند بوابة الشجاعية، تحمل الشهيد عالياً وقد لف بالعلم..

وحول المقبرة ضرب الجنود الطرق وانقضوا بالهروات، رضاً وهرساً ورصاصاً يسرسع في الهواء وفي التراب بين الأقدام..

بعض كبار السن رافقوا الجثمان أودعوه وودعوه ..

بكت غزة، ومضى حسني بلال حكاية بين الناس .

وفي الدار كان صابر يتحدث عن شكرون، النوري الذي ذبح في دشمة المنطار مع الشاويش طلبة والصعيدي متقال ودفن مع وشم أدهم الشرقاوي على ذراعه..

وعن النورالذين تعرفوا على ابنهم ورفضوا دفنه مع الجنود المصريين في الفسقية..

سحبوه، ودفنوه بعيداً بجانب عريشة الشيخ أبي صبحة، وبكوا عليه، ورددوا نواحاً غريباً لم يستطع صابر فهم كلمة منه ، ولكنه بكى معهم على نقرات دف القهقير الحزين الذي دق مع ترديد "روجينا "...

سألته أمي عن سبب وجود النوري مع الجنود في الدشمة، أجابها صابر أن شكرون يبيع الحشيش على الجنود ويعزف لهم على البزق، حتى يسلطنوا ويتسلطنوا، علقت جدتي:

– الله لا يرحمه مات عاصي..

وضع صابر يده على فم جدتي يمنع مزيداً من دعواتها الغضبى:

– بلاش يا عمتي تدعي عليه، يمكن ربنا يحسبه شهيد علشان اليهود قتلوه

– ولك يا هامل هم النَور بيصيروا شهدا؟

– ليش ما هم مثلنا غربا ومهاجرين وبيلاقوا الأمرين في معيشتهم؟

- صحيح من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم ما انت نَوري مثلهم

- يا ريت يا عمة

- كله علشان النورية الرقاصة!

لوح صابر بذراعه، واطمأن على حورية في حضن فارسها يطير بها على مهر أصيل، يقفز في وشم مكتوب، يزعق في شراييه

"صابر بطل بيع الدم.."

وقبل أن يهبط الليل انصرف صابر، لم يلتفت خلفه، ولم يجاريني بضحكته عندما زعقت عليه

"عليك العوض يا أبوعوض" .

هل كنت حزيناً أعزيه في صديقه شكرون؟ أم هي دفقة الدم الذي رشقني بها حسني بلال ومازالت تخايلني وتجعل الموجودات ترقص حمراء..

حمراء؟!

وحول مجامر الكوانين نرهف السمع لأخبار المطاردات، والإعتقالات ،والقطار الذي يمضي بالمعتقلين ليلاً إلى سيناء، عن إخوان مسلمين ووطنيين وبلاشفة شيوعيين، سجون الواحات وأبي زعبل، وسجن السرايا، وتوطين اللاجئين في سيناء، أبي يردد دروساً يسمعها من جعفر فلفل، جدي يتبرم من الأفندي الذي لا دين له ولا ناموس ، تجارته الكلام، لم يعرف برداً ولم يتعرض لذل السؤال وطوابير الإعاشة..

يحسم الأمر تخوفاً من غدر الزمان، يحذر أبي وخالي .

- انتوا ناسيين أكوام اللحم المعلقة في رقابكم، انتبهوا لرزق عيالكم واتركوا السياسةلأصحابها، احنا ناس ورانا النول وقدامنا خبز العيال..

مين بيدوّر عليكم اذا نفوكم في الصحرا ؟.

وبعد أيام وقد أطفئت المجامر وتهيأت الدار للنوم، وأغلقت أبواب الحجرات في وجه ريح الليل، دق محمد فارس على الباب دقات عجلى...

وفي عتمة حوش القاعة احتضن خالي وصعد على عجل إلى الدار الفوقا، التي تخلصت من أهداب نعاسها مع فجأة الطرقات، قبّل يد جدي وارتمى على صدر جدتي فاطمة، عاجل جدتي نفيسة قبل أن تعتدل في فراشها وقبل يدها وفي البراندة، احتضن أبي وارتخى حنكه، لم ينبس ببنت شفة..

وقبل أن يمضي ناولته جدتي فاطمة صرة من حواضر البيت:

- خذها يمكن تجوع ، ماتنساش مطرة الماء

أخذته العتمة، وشيعنا وقع خطواته، حتى ذابت في الحارة .

وفي غرفة جدي أقعى خالي، ونفخ في الجمرات الخابية حتى توهجت كرات صغيرة، ألقى عليها فحمات نيئة طردت النار رطوبتها دخاناً بارداً ورائحة حريفة...

سرعان ما تحولت من الأسود إلى الرمادي الداكن قبل أن تكتمل كتلاً حمراء قانية، تطلق هسيساً وشرراً يفرقع قبل أن يرتفع في فضاء الغرفة ويموت..

خالي يهاجس جدي:

- كل الفدائيين يعبرون الليلة

- واليهود غافلين بعد ضربة المحطة؟!

- مصطفى حافظ عايز يرد قبل ما تبرد الضربة

أبي يدفئ كفيه على النار:

- بدهم يسكتوّا الناس بعد هوجة المحطة ويغطوا على الاعتقالات .

تحدثوا عن أوامر صدرت لجميع الفدائيين بالعبور إلى العمق وتنفيذ العمليات، وعن مصطفى حافظ وعن الادلاء الشرفاء والعملاء، وعن بيع الرجال في الدروب الـوعرة، وعـن جثـث يسلمها الصليب الأحمر عند الحدود..

عن أولاد ذوات وأولاد فقراء..

وعن محمد فارس الذي قطع على نفسه عهداً بألا يترك "برن" عزات حقي (الذي فاضت روحه على صدره)

- البرن أمانة يا محمد

وعندما جمع الجيش المصري السلاح من الناس، رفض تـسليمه، ومـضى إلـى البيـارات والكروم، وها هو بعد الهجرة ومازال يحمل البرن..

و قبل أن ينطلق إلى العمليات يترك رشاش الكارلوستاف عند خـالي وينطلـق ب.. يقـول لخالي..

البرن يونسني.. وكأن عزات مازال معي..

يستطلع الدروب ويوجه الأوامر، ويأخذ القرار في الوقت المناسب..

يقايض على رصاص الكارلوستان برصاص البرن، يشتري ما يتيسر منه، وعندما يرجع يودعه عند جدتي، ويحمل رشاشه، ويقدم تقريره للقيادة، وكنت أتساءل:

لماذا لا يذهب إلى بيته، ولماذا ينطلق من عندنا ليعود إلينا ؟

حكايات عن الثوار، والعائلات التي قدمت قطعة سلاح ومقاتل ينضم إلى الثوار، عن عزت حقي الذي اختار محمد فارس من العائلة، ورفض خالي حتى يعود لإعالة عائلته وعائلة محمد فارس، وعن عائلتنا التي اشترت البندقية الألمانية، وعن جدتي التي شقت ثوبها عندما سمعت خبر استشهاد عزات حقي، وطلت وجهها بشحار الطابون، وانطلقت توزع الفاجعة على كل البيوت .

بعد يوم وليلة، رجع في آخر الليل، واندس في الفراش، ولم يصحُ الا مع الضحى، جدتي انشغلت به، تهش الصغار بعيداً عن فراشه، تمسح العرق الذي يتصبب من وجهه، وتعدل رأسه على الوسادة كلما علا شخيره، تحدق في سحنته المعذبة في نومها:

– مرعوب يا ولدي، عمره ما ركبه الخوف مثل هالمرة، كان حاسس

أسأل جدتي:

– هو بيخاف يا جدتي ؟

– ماشي والموت ماشي معاه.. هو اللي بيشوفه قليل؟!

وعندما صحا طفحت دموعه، فررنا من حوله نراقب دموعه تتأرجح على شعيرات شـــاربيه وتسقط على صدره..

ونعجب كيف يبكي بلا صراخ أو نهنهة..

جدتي تربت على كتفه تمسح ماء وجهه..

- ضاعوا يا حاجة مثل شربة مية، العربيد والدنف وقعوا..

وتحدث عن أربعة كان خامسهم الدليل، انطلقوا من وادي بريدعه إلى كروم دمـــرة، والـــدليل المريب يتلفت إلى الخلف كثيراً، خوف قبض صدره، ثبت قدمه بالأرض وأصر على تغييـــر الطريق، الدليل أنكر معرفته بدروب آمنة أخرى، وفي العتمة انقسمت المجموعة، لُحق العربيد والدنف بالدليل، ومضى هو والسرحي في طريق موازٍ لهم..

بعد دقائق قامت الدنيا، لقمنا الأرض، شبح في الليل يطلق ساقيه، يظهر ويختفي مع ومـــيض الرصاص المنهمر مثل زخ المطر، واندس هو والسرحي في صواريف الصبر جدي يهزه..

- يعني راحوا؟.. والدليل؟

- باعهم وقبض حقهم

- والسرحـــــي؟

- مخروع تركته عند ناطور بيارة الباشا

ونهض مهدوداً تحامل على أوجاعه

- خليني ألحق السرحي علشان نقدم تقرير للقيادة

وثار جدل بين جدتي وجدي حول قطع "الخوفة" لمحمد حتى لا تسكن بدنه، وتعقــد عروقــه، وتهد حيله، وتقطع نسله..

جدي هاج من "قلة عقل النسوان" :

– رجل قد الفحل عايز قطع خوفة وطاسة طربة كمان؟!

- ليش هو قطع الخوفة عليه كبير؟ ..

ناسي يوم ماطلع عليك القتيل، وصلت الدار ترتجف وحطينا عليك كل لحافات الدارعالفاضي، وصبحت مريض وحيلك مقطوع لولا الشيخ أبو صبحة مرجك ودعك بدنك بالزيت وظل ورا الخوفة لما طردها من بين محاشمك.

جدي يتلجج ، يشخص بعيداً

- ضبي حالك يا ولية بلاش هَبل
- والله لولا الحيا لأقطع له الخوفة أنا..بلا مكابرة

وعلى الغذاء أعادت جدتي الحكاية، فلم يحرك محمد فارس ساكناً، لم يعترض، فانطلقوا به إلى بيت الحنجوري في حارة التفاح.

نيسان يُبشر بقيظ الصيف، يهيئ لموسم خميس المنطار، المقبرة الشرقية بين حارة التركمان وحارة الجديدة مسرح الموسم الذي يمتد إلى تلة المنطار..

غزة تقذف ناسها، رجالاً ونساءً وصبايا وشباباً وأطفالاً وشيوخاً..

غواية المواسم تتبدى على وجوه الصبايا، حمرة الأشواق والاجتراء على الأصباغ، والكحل حول عيون النساء..

الشباب يتمنطقون بالسيور الجلدية العريضة، مزينة بجرابات الشباري والسيوف القصيرة والطويلة، عصى اللوز المعقدة المشذبة واللامعة بألوانها المغندرة الجذابة، قصبات الخيزران معقوفة في قبضات القبضايات، وشيوخ الشباب..

خيول غُسلت في البحر قبل أن تولد الشمس، تنضح عرقها عافية في السباق، شيوخ ومجاذيب، وأصحاب طرق وكرامات، يلعبون بالسنج على دقات الطبول، يتمايلون مع ريح الحي القيوم، يغرزون السنج في لحم بطونهم، لا يسيل منها دم، ولم يند عنهم صراخ ألم أو قتل، عدة سيدي أبو الكاس، وموكب الشيخ بشير، ودراويش السيد هاشم، وأعلام المسجد العمري الكبير، صوفية الزوايا، بصارون ونصابون، وحرامية أيديهم خفيفة..

باعة الخروب والسوس بقدورهم النحاسية ملفوفة بأحزمة ملونة لها شراشيب، صاجاتهم تلعب في أكفهم، تصدر رناتها في ايقاع معروف، يلقمون فوهات قدورهم بألواح الثلج السائحة تستدرج أنفاس الصدور ولهفة الزوجات الشابات، والمخطوبات، والعرسان، لحالة فرح مختلسة من رقابة الأهل، ومحظور العادات، فائزة برغبات حلال مسروقة..

تلهث الصدور أمام باعة يعرضون ما تشتهي الأنفس، وما يبل الريق حلاوة وطراوة ..

في دارنا يفرض الموسم طقوسه عاماً بعد عام في زمن الهجرة..

يستدعي أيام وادي النمل، وموسم سيدي الحسين، يعرج على شقاوات وصبابات روبين يافا، وموسم النبي صالح في الرملة..

أنهت القاعة أعمالها بعد الضحى، طوى العمال ما نفلوه عن مطاوي الأنوال من أقمشة، حاسب جدي العمال كل على مقطوعياته، مضافاً إليها عيدية الموسم، استبدلت عيدية سيدي الحسين بعيدية خميس المنطار في الهجرة، فرضها جدي نظاماً على القاعة، والتزم بها أبي وخالي، مع العيدين وحسبة عاشوراء فالأقربون أولى بالمعروف، ومن أقرب من عمال قاعتنا وكلهم، إما نسيب أو قريب أو ابن بلد..

النساء في الدار الفوقا لم يقعدن خلف دواليبهن، حضرن ما يكفي من مواسير اللحمة في اليوم الفائت، وحضرن الكعك والتمر، وطبخن السماقية الغزاوية الشهية الطارئة على مطبخنا المجدلاوي...

واعتمدنها كما هو الحال في الحارة، وجبة أثيرة في المآتم والأفراح والأعياد، وأيام شطحات الخسة في بيارة أبو راس، ونزهات المقصبة في بركة قمر، حسنة لم تعد مبكرة إلى المخيم كعادتها كل خميس، منذ أن خطبت لتتفرغ لشؤون بيتها وتحضير ما يلزم لزيارة خطيبها، زريفة ولطيفة في غرفة الخياطة، يتحنجلن متباهيات بفساتينهن الجديدة حسنة الطويلة البيضاء.. بالفستان الوردي المشجر وشعرها السارح على كتفيها..

أثارت هياجاً في الدار، تحول إلى زيطة ونقر على طشت الغسيل، النساء يتحسسن الفستان المشدود على صدرها وبطنها، يرفعن ذيله، يكشفن عن ساقيها وفخذيها..

ينشرن لحمها تهبط على الأرض، تلملم نفسها، وتداري خجلاً مصطنعاً ، يصعد حمرة شفافة على خديها..

ينتظم النقر على صاج الطشت:

غندرة مشي العرايس غندرة

واللي يحب الزين يمشي غندرة

جدتي نفيسة تلعن فجور النساء وتؤنب حسنة:

– يعني هذا المحزق الملزق بلحمك أحسن من الثوب يا خايبة.. وايــش خليتــي للراجــل .. صحيح المرة بدها ذكر يشكمها ..

جدتي فاطمة فرحانة لفرح حسنة، تحضنها وتقبلها، تسحبها للرقص تــستجيب حــسنة علــى استحياء، ثم سرعان ما تسحب معها زريفة ولطيفة جدتي، لم تكبح جماح زغرودتها..

تغرق في الضحك حتى تشرق ترد عليها كنتها بزغرودة وتغني

يا زريف الطول ع البسطة يبيع
بانت غرتها والحاجب رفيـــع
وأنا يا حلوة في حــبك وقيــع
حطيني في صديرك بدل المحرمــا

جدتي تبصق في عبها، تخاف الحسد والعيون التي تفلق الحجر..

– ياما تحت السواهي دواهي، من حقه أحمد شمعة يطق عقله

وسحبتها من الحلقة، وأمسكت الطبل، وفرقت الهيصة قبل أن يصعد الدم إلى رأس جدي فــي الدار التحتا، لا سيما وأنه وافق على ذهابها إلى الموسم على مضض..

زعقت على زريفة ولطيفة حتى يسمع جدي:

– ما صدقتن تسمعن الطبل ..بدكن عرس ترقصن فيه، الله لا يكبركن.

وراحت تستحث الجميع للإنطلاق إلى الموسم قبل أن ترتفع الشمس، وتسيح كحـــل العيـــون وأصباغ الوجوه، فقد قررت هذا الموسم وعلى غير عادتها أن تذهب تاركـــة جـــدي يلعـــب الدريس والسيجة مع أبي حسنة، ولم تلتفت لبرطمات جدتي نفيسة التي تعتبر خروج النـــساء والبنات إلى الموسم ضلالاً وكفراً وفراغة عين ورخاوة رجال..

في الصباح وعلى مائدة الإفطار كان جدي يحاول عبثاً مع جدتي:

- اهدأي يا مرة.. المواسم بدها مروة شباب

- هو أنا رايحة أتغندر.. بدي أجيبه وأريح حالي من نذره قبل ما أموت.. ماهو كله علشانك يا ابن الحلال..

أبو صبحة على يديه شفى جدي، بعد حادث القتيل الذي خرج له من المقبرة الغربية، وقـــف أمام الحمارة، وبخ في وجهها فتسمر ، وصرخ عليه في العتمة:

- انزل يا ابراهـــيم

طار عن ظهر الدابة المخبوعة، وأطلق ساقيه للريح والعتمة، والقتيل خلفه يرجمه بالحـــصى حتى وجد نفسه في منـــزول صالحة في أول حارة رومية..

حملوه إلى الدار مهدوداً، لا يصد ولا يرد..

وفي الليل قبل الفجر دق أبو صبحة الباب ، وحوطه بالمحصنات وأودع حجابه أسفل رأسه، ورش المكان بماء طاسة الطربة، "فلصّ" شدقيه وسقاه..

ومرجه بزيت الزيتون على مدار ثلاثة أيام حتى فك عقدة بدنه، وفي اليوم الرابـــع تجمعـــت الخوفة في محاشم ...

مدده عارياً على ظهره، وظل يدعك بطنه، ويضغط ما بين الوركين حول ذكر ..

حتى تلوى ألماً وشهوة وانتصاباً..صرخ فيه:

- قم يا ابراهـــيم

ونهض سليماً معافى، دار في حوش الدار، وأطلقت جدتي الزغرودة، ونذرت عدة كاملة للشيخ وباطية جريشة لأصحاب النصيب في مقام سيدي الحسين..

فأما الباطية فقد أوفتها في أول خميس، وأكل منها أبو صبحة ومجاذيبه وخلاّنه، وأما العدة فقد رفضها..

زوى ما بين حاجبيه، قلب عينيه في الفضاء..

اهتز وارتج كل بدنه، وأخذ ينهرها.

– روّحي يا فاطمة، بدك تشتريني وتبعديني عن الحبيب.. حي يا قيوم عودي يا فاطمـــة.. لا تتبعيني

وظل على حاله ينتفض كلما رآها حاملة البقجة تنتظر عند المقام، حتى صارت الهجرة وسكن المقبرة.

أسأل جدتي عن الحمارة :

- ظلت مخبوعة مطرحها، ولما طلع النهار سحبوها إلى البيت بدون الفردتين

ترد جدتي على السؤال الذي قفز إلى رأسي عن الفردتين..

- أصله جدك كان مروح من الكرم "بسحارة عنب وسحارة صبر" أخذوهن سكان المقبـــرة حلال عليهم

تبصق في عبها، وتحوط المكان بسم الله الرحمن الرحيم

- أصله بيقولوا ان الأموات إذا زعلوا من أفعال الأحياء يطلعوا عليهم في الليـــل ، علـــشان يعتبروا، ماهو يا ولدي الأحياء أولاد الأموات، يحملوا همهم حتى بعد ما يموتوا..

جدتي ستبحث عنه في الموسم، وتعود به إلى البيت، تجبره على الاستحمام بالصابون والمـــاء الساخن، وسترسل وراء الحلاق أبو صفوت النمنم يقص شـــعره الهـــائش، ويـــشذب لحيتـــه السارحة إلى سرته، ستجبره على ارتداء عدته بالقوة، عسى أن يعود إلى أوردتـــه ورياتـــه وأعلامه ويجمع دراويشه الذين تفرقوا..

جدي يتدخل

– أبو صبحة ضيع عدته ودراويشه من يوم ما ضاع منه مقام سيدي الحسين وســـيدي نـــور الظلام

ترد عليه بعناد ايمانها:

– كلها مقامات لأحباب الله في الدنيا الواسعة، عنده السيد هاشم والشيخ بشير وأبو الكاس.. في كل المقامات يقبل الدعاء..

وأنا مشبوح بين رغبة الذهاب إلى الموسم، والخوف لدرجة الموت من فلقة الأستاذ عوض الله ولسعات خيزرانته على قفاي وقصبات ساقيَّ، فهو لا يرحم من يغيب عـــن المدرســـة، ولـــو أوشك على الغياب عن وجه الدنيا..

لا يحترم صغيراً أو كبيراً..

وهو الذي زجر أمي عندما أتت إلى المدرسة تستأذن لغيابي يوم طهور (ختان) ابن خالتهـا في مخيم رفح ، ثار وأربد وأزبد، وخرج عليها بدرس في الأخـلاق والمفهوميـة، وحملهـا مسؤولية افسادي، وانهال على قفاي بخيزرانته الطويلة (أم علي)

- هذا ابنك وحبة عينك في الدار، لكن في المدرسة بدو يمشي على العجين ما يلخبطـوش ، واذا مش عاجبك خذيه وخليه في حضنك، يا مدرسة.. يا دلع .. وقتيش بـدكم تفهمـوا.. ضاعت البلاد، وبدكم تضيعوا الأولاد كمان

هربت من وجهه، وأبقتني في المدرسة، وفي الليل حاولت استنفار حمية أبي علـى الأسـتاذ عوض، فضحك حتى وقع على ظهره:

– بتستاهلي، ليش بتدخلي في شغل عوض الله.؟.

– والله قطع قلبي ع الولد، وهو نازل سف فيه من غير رحمة، ماهو لو عنده أولاد بيعـرف غلاوة الضنا

وعلمت فيما بعد أن الأستاذ عوض الله عقيم، وله زوجتان جميلتان احداهما ابنة عمـه التـي زوجته وهي لا تدري أن القصور منه، والأخرى غريبة يرفض تطليقها ،لأن ابن عمها ينتظر طلاقها ليتزوجها..

وتسربت الينا حكايات زوجتيه اللتين تقلبان حياته ناراً حمراء، ولا يجرؤ أن يلوح بالخيزرانة أو حتى التهويب عليهما من بعيد..

أمي تملأ جيوبي بالتمر والكعك، تطمئنني أن أحمد شمعة سوف ينتظرني عند بوابة المدرسة فور انتهاء اليوم الدارسي، ليعود بي إلى الموسم، زادت مصروفي إلى قرش كامل بدل التعريفة، تكفيراً عن قصورها وعجزها في مواجهة عوض الله، وأنا الخائف من الغياب بدون إذن تلاحقني لسعات (أم علي) على بدني..

أقنع نفسي بأن الموسم لا يبدأ إلا بحضور التلاميذ ،فهم يحفظون الأناشيد والقرآن.

في الصف نصعد الدرج إلى الطابق العلوي إلى الصف الثاني (أ) الذي أنشئ حديثاً، نتباهى نحن سكان الفصول الثلاثة الجديدة المعلقة العالية..

ننظر، وقد ارتمت المدرسة تحتنا، ينكشف فضاء الشجاعية بدوره وأزقته وساحاته، تختزل المقبرة الشرقية إلى صناديق مغبرة يغلفها ضباب المدى..

تخدعنا أبصارنا فتصبح بيوتاً صغيرة شفافة نتخيل سكانها يلعبون داخل صناديقهم.. فصلنا يدير ظهره لمحطة القطار وسبورتنا تجعلنا نيمم غرباً..

الحصة الثالثة ، الخوف من النقر على الأصابع المشبوكة الممدودة أمامنا..

والشيخ الصوالحي يحفظنا الآيات الجديدة..
تردد معه، خيزرانته القصيرة تحط على أصابعنا كلما توانت حناجرنا.. نتنفس الصعداء عندما يكتب على السبورة معاني الكلمات الصعبة..
ننسخها في دفاتر الكلمات الصغيرة..
أزيز يصفر في الهواء في جميع الجهات..
بلاطات من قرميد السقف تطايرت ، وضلفات الشبابيك تصطفق ،الشيخ الصوالحي يهبط على الأرض، تفاحة آدم في زوره تبرز مثل عقفة العكاز..

نرتفع ونبهط إلى الأرض، فجوة في الجدار الشرقي تفتح علينا بوابة الهلع والخوف والموت..

حول الشيخ ننطق بالشهادتين

(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)

الأستاذ صلاح اللبابيدي، يأخذ بيد الشيخ يهبط به بمحاذاة الجدار، ويعود يسربنا بحذر، ويسلمنا إلى الأستاذ عوض الله الذي يحملنا اثنين اثنين ويطير بنا إلى الصالة في مبنى الإدارة، كل المدرسة تجمعت في صالة الإدارة، المعلمون يستطلعون الأمر من الشبابيك المطلة على الشارع الممتد إلى الشجاعية والصاعد إلى المدينة..

جموع الناس تتدفق إلى المدرسة يحتمون من القصف، أمهات وآباء يحتضنون اولادهم ..

أبحث عن أمي وأبي..

القصف يتوقف دقائق ليعود أشد ضراوة..

صراخ وعويل، سيارات الإسعاف، وسيارات عسكرية ومدنية وعربات وبغال، وحمير، وجثث آدمية ودم نازف ..

وأخبار من الناس عن الناس، موتى وجرحى ومفقودين تحت ردم الأنقاض..

قذائف المورتر، ومذبحة المنطار ولحم تناثر بين القبور، وقبور بقرت وقذفت عظامها وبقاياها..

والشمس تودع العصر تزحف نحو الأصيل..

الموت يتربع في الصالة، والقذائف تئز متفرقة متقطعة، تغري بالخروج قبل زحف الليل..

والمدرسة بلا أجراس، خوف من الخروج إلى الشوارع، وأقصر الطرق إلى البيت هو اجتياز المقبرة..

وقبل أن أقطع الإسفلت صرخت على صابر.. لم يلتفت إليّ..

كان يحمل امرأة على كتفه باتجاه مستشفى الطوارئ..

جسمه مغسول بالدم، وبقع الدم تنز منه إلى الأرض، وأجرى ومحمد أبو العينين مذعورين نحتمي بسياج المقبرة، نتجمد عند الشيخ بشير، هدمت دار على سكانها..

الناس يبحثون عن الجثث، رجال تمددوا على الأرض ، وجثث غطيت بالبطاطين وقطع الحصي..

(هنية البردويل) صاحبة أمي بطنها مفتوح، وحبال من الدم تتكوم حولها..

عيناها العسليتان شاخصتان ورموشها الطويلة مثل ابر مشرعة، يطردنا الخوف إلى ساحة الشوا، أبي يحتضنني ومحمد يهبط بنا إلى البيارة، في البيارة الناس يفترشون الأرض يدوسون الكرنب والباذنجان والفلفل لا يحسبون حساباً للناطور، وثمة حفرة عميقة خلفتها قذيفة فجرت الأرض، الناس خرجوا إلى البيارة حتى يحددوا مواقع سقوط القنابل..

رجل يئن في السياج ساقه المبتورة أسفل الركبة ملفوفة بخرق مشبعة بدمه، رجل يرفعه من ابطيه، ويحمله على ظهر حمار، يمضي به إلى طلعة صلاح الدين باتجاه المستشفى المعمداني..

أمي هابطة من الدار تلطم خديها مهبولة، فقدت عقلها..

– أنا اللي ضيعته.. أنا اللي قتلته!

يهجم عليها أبي يحملها على صدره، يسحبها إلى البيارة، أختبئ في حضنها..

تقبلني في كل جسدي، تلثم يدي وأطراف أصابعي، تتفقدني، أبكي، وتبكي، أرتجف وترتجف، أضحك فتقهقه، تنتفض وتصدر أنيناً مثل قطة تموت..

تتمرغ بين الزرع، تنشب أظافرها في الأرض المروية، رغوة زبد تفور من فمها، وعيناها معلقتان في السماء، انزاح البؤبؤ تحت الجفن واحتل الحدقة بياض مجهداً بشعيرات دموية حمراء نافرة..

أكثر من صوت وأكثر من عويل

- إلحقوا الولية ضاعت.

في الدار غسلوا وجهها بالماء، دعكوه بالكالونيا، دقوا فحول البصل وحشوها في منخريها ..

رفرفرت، زامت، ثم صهلت..

وأجهشت بالبكاء، وعندما أفاقت انتظمت دقات صدرها سحبتني إلى حضنها.وأخذت تحدث :

- يا ويلي على اللي جرالك يا هنية، لميّت مصارينها بإيديّ هذول ، تقولش حبال منقوشة ومنسولة ومغمسة بالدم..بطنها، رميت منديلي عليها ومشيت، الناس ردوني من الطريق، قالوا المقبرة نار الله الموقدة...

والمدرسة الهاشمية وقعت على الأولاد، رجعت مثل المجنونة لفيت من الشجاعية، لقيت المدرسة على حالها والأولاد مروحين، الدنيا قايمة قيامتها والناس مش عارفة وين تروح، اللي حامل مصاب، واللي شايل على ظهره ميت ومش عارف ايش يعمل فيه، دورت على الولد ، سألت الناس عنه زعقت..

رجعت مثل المجنونة .

أمي تقذف الكلام سريعاً غريباً، تأكل بعضه وتقذف بعضه الاخر، لا أحد فينا يجـــرؤ علـــى السؤال، يحط علينا سؤال عقلها الذي ذهب هل يعود إلى رأسها ؟..هل ما تقوله حقيقة؟ .

جدتي فاطمة أنضجت جمرات المبخرة، عبأتها بتراب البخور، حتى فاحت رائحته، دارت به توزع دخاناً عبقاً ، وتوقفت بالحجرة لحظات فوق رأس أمي، تتمتم بما تحفظ من القرآن، ثـــم تنتقل إلى زوايا الحجرة، تبخر الجدران والفراش والوسائد والملابس..

الدخان يمتص الكلام ، ويوزع الصمت في المكان..

يخفت صوت أمي رويداً رويداً.. يهدأ جسدها ينقلونها إلى الفراش، فتستجيب، يضعون تحت رأسها الوسادة فتبتسم بامتنان..

تذهب في نوم هادئ ..

وصوت جدتي خفيف لا يكاد يسمع.

الحمد لله هِدْيَتْ.. سيبوها تنام

وفي الليوان الغربي تجمعنا، حول حكايات الموسم، والقصف والموت، جدتي تحدث، بحثـــت عن أبي صبحة في المقبرة الشرقية وتلة المنطار دون جدوى، حتى وجدته غافياً في ظل قبر أبيض طرف المقبرة تظلله شجرة زنزلخت، يستظل بظلها مع صاحب القبر ومقـــرئ كفيـــف توقف عن قراءة القرآن، انتظرته حتى صحا..

وقعت عينه عليها، فاهتز بدنه وهاج.

– لاحقاني عند أهل الآخرة ؟.. ارجعي يا فاطمة

نفض التراب عن هلاهيله، وقام، سدت عليه السبل ، مدت له يدها، فتسمر ملجوماً، سحبته من كمه كي لا ينقض وضوءها، تبعها مثل طفل مطيع، وخرجت به إلى الطريق...

رنت دقات عصاه على الإسفلت فاطمأنت، اخترقا جموع الناس، توقفت معه حيثما توقــف، ونظرت إلى حيث ينظ ، عند بياع السوس توقف فأعطته كوباً مثلجاً، شربه بارتياح، أشـــارت عليه بكوب آخر، أشاح بيده علامة الإرتواء..

ما إن ابتعدا عن بائع السوس خطوات حتى زغردت الشياطين في السماء، طارد الموت هواء الدنيا ،وحط على الأرض والناس، أخذها تحت إبطه ولوح بعصاه حولهما..

يدور فتدور معه..

وعصاه تدور في جميع الإتجاهات يصرخ:

– غوري بعيداً عنا

يشدها إلى صدره.. تدفن رأسها عند قلبه وتهدأ..

– ما تخافيش يا غالية

يقاتل بعصاه، وكأنه في طوشة أو فزعة، يضرب بقسوة فتسقط القنابل بعيداً، ويتساقط الناس، تؤمن أنه قادر على طرد الموت عنها، يأمر القنابل، تخافه القنابل فتتساقط بعيداً عنه وعنهـــا، وظل على بأسه وصلابته حتى توقف القصف..

كان يلهث، ينـــزف العرق من وجهه وكفيه يبلل أطراف لحيته ومقبض عصاه..

خبأها تحت إبطه وسارا سوياً باتجاه البيت، وفي ساحة الشوا توقف، شخص باتجـــاه الــشيخ بشير، تركها واندفع مع الناس..

صرخت:

- وين رايـــــح؟

- شامم ريحة موت هناك, عودي يا فاطمة، نذرك مقبول

ارتج وتلجلج صوته واجهشت جدتي..

كيف عرف أبو صبحة أن الموت في دار البردويل، واستعاذت بالله العلي القدير مـــن كـــل شيطان رجيم ..

وتمتمت:

- الحمد لله اللي قبل النذر

جدي يتابع دخان غليونه، ولا يعلق ، تسترضيه، لأنها خرجت إلى الموسم على غير رغبته.

- الحمد لله اللي ما ضيع لي تعب.. ما هو كله علشانك يا حاج.

- السلامة غنيمة يا أم محمود ..والمقدر مكتوب

وحط صابر بيننا مغسل، وقد جف الدم على وجهه ويديه ما زال ندياً يبلل ثيابه..

كل شيء فيه أحمر..

صامت ممصوص سرعان ما تكوم على بلاط البراندة قدام الليوان..

ذراعه مهدول على جانبيه والدم الجاف مقشر عن وشم الفارس والفرس، والجديلة السارحة.. جدي الذي قام إليه يتحسس جسمه:

- سليم اتركوه.. يفيق ونشوف وين كان داشر

وصحا في الصباح، تحدث عن ياسمين التي طارت مع القذيفة، وطار هو في الهواء ينادي عليها، هبطت تشخب دماً من كل بدنها، حملها على كتفه، وانطلق بها إلى المستشفى المعمداني، وتمدد بجوارها على أقرب سرير .

– خذوا دمي كله لها

سحبوا منه ثلاث زجاجات دم، فأغمى عليه، قام دائخاً تدور الدنيا به..

كل شيء يدور، وكل شيء يرقص، وياسمين ترقص يطير شعرها في الهواء، تطبع على خده قبلة، تهرب بعيداً عنه ، تشير مودعة تشعلل قلبه وصدره، لكنه يدور ،والدنيا تدور، والطبيب الأبيض يدور ..

والناس والعويل والصراخ..
شرب كوب العصير..
توقفت الدنيا عن الدوران طارت ياسمين ، صرخ عليها..
فأخبروه أنها وصلت إلى المستشفى ميتة، وأن دمه وزع على مصابين محتاجين، وأن رهطاً من النوّر أخذوا القتيلة إلى المقبرة، وأن "روجينا" النورية قبلته بين عينيه، وقشرت الدم الناشف عن وشم ذراعه حتى ظهر طرف جديلة الصبية، شهقت وملأت الدنيا صراخاً وعويلاً..

أجهش صابـــــر:

– لما رسمت ياسمين بالوشم على ذراعي هاج أبوها القهقير فأخرسته روجينا

– بس تطوله وتتمدد بطوله.. سبع ابن سبع والا نسيت أبوه عوض المجــدلاوي ســبع وادي النمل؟

هدهدته جدتي على صدرها تبارك عشقه:

– عليك العوض يا أبو عوض.. الحمد لله ان راسك سالم .

لم نعد إلى فصلنا في المدرسة، فقد صدعت القذيفة جداره الشرقي، وطيرت قرميــد الــسقف، وكسرت بعض البنوك، وزعونا على الفصول (ب ، ج) وجلسنا كل ثلاثة تلاميذ على بنــك، في الساحة لم نصطف في طابور خاص بنا، ولم يعد عريفنا يتقدمنا ويسجل أسماء الغــائبين على جانب السبورة، وأسماء المشاغبين في ورقة سرية يسلمها لأستاذ الحصة..

أصبحنا لاجئين إلى الفصول المضيفة، لماذا تغيرت العادات ؟ حتى الأستاذ عوض الله لم يعد يحمل عصاه (أم علي) ليطارد المشاغبين ، والمتأخرين، والأستاذ صلاح اللبابيدي ترك زي الكشافة والشارات الملونة، فاكتشفناه من جديد ربعة يميل إلى القصر..

هل تنازل عن قيادة المدرسة ..؟

هل عزل عن القيادة؟

بعد يومين من عودتنا عرفنا سبب غياب جلال الجماصي ، وتناقلنا قصة أبيه العربجي الذي اندفع بكارته لاسعاف بنت فلفل التي أصيبت في حارة سوباط المفتى، وشطبت الشظية ساقها..

اجتاز بها الساحة إلى المستشفى، لكن ريحاً مجنونة شلعت رأسه، توقف القصف، ونقل إلى المستشفى جثة بلا رأس، أودعوه في غرفة عزرائيل ،حتى عثروا على جمجمتة ملقاه في بلكونة القهوة المعلقة في الساحة ..

قلقت على صديقي عودة..

انقطعت أخباره، تغيب عن المدرسة يوم الموسم حسدته يومها على جرأته، وفي يوم وقفت امرأة طويلة بيضاء بباب الفصل..

وكان الأستاذ عوض الله يفتش عن واجب الحساب، ويراجع معنا حلولنا الصحيحة والخاطئة..

حمحم الطلاب في الصفوف الأمامية، بادرته المرأة قبل أن يسألها:

- غريب العسقلاني عندك في الصف؟

وقفت وجلاً.. امرأة مثل الحليب، طويلة ممصوصة تأخذني إلى صدرها..تنهنه.. أرتعد خوفاً وسط ذهول التلاميذ من حولي:

- ابن مين انت يا حبيبي؟

- ابن العبد العسقلاني

- أمك آمنة يا حبيبي؟

أومأت برأسي، صوتي لا يخرج من فمي..

خائف منها، وخجل من ذكر اسم أمي أمام التلاميذ ..

سري ينكشف..سيطاردوني ..يا ابن آمنة العسقلان . .

تنتشلني من خوفي وخجلي، ترفعني إلى صدرها، أحس بدقات قلبها .

– عودة صاحبك مشتاق لك..عودة بيسأل عنك، وعن أصحابه عــودة مــش قــادر ييجــي للمدرسة..

وفي اليوم التالي، خرجنا من الفصول المضيفة، في الساحة انتظمنا في طابور يتقدمنا عريف الفصل، والأستاذ عوض الله، والأستاذ صلاح اللبابيدي وقد عاد إلى بدلة الكشافة، واعتمــر البيريه العسكري، وطرز صدره وأكمامه بالنياشين والشارات..

اخترقنا شارع عمر المختار ..

وكنا صامتين، قاماتنا مشدودة ووجوهنا حزينة متجهمة ..

من الساحة انعطفنا يساراً إلى المستشفى المعمداني نزور عودة خليل عودة الذي فقد ساقيه في المقبرة الشرقية ، فيما هو يحمل الراية ويتقدم مشايخ سيدي أبو الكاس..

عودة كبشة لحم وعظم اختزلت في وسط السرير الأبيض وقد فارقه نصفه الأسفل..

يوزع علينا ابتساماته، والسؤال يدق في رأسي لدرجة الإغماء..

صرخت دون أن يسمعني أحد، من سيتقدمنا في درب العودة يا عودة ؟؟..

ووقعت مغشياً عليّ

- 16 -

ازدهرت تجارتنا، وتتابعت سفرات أبي إلى مصر، لا يكاد يحط بيننا حتى ينطلق ثانية إلى مصر، ولم تعد مشاوير المحطة طقساً مغرياً، في البلد يمضي نهاره بين الدكان والبنوك والجمرك، وتخليص شحنات البضاعة من جمرك المحطة، علاقات مع تجار وموظفين، تنوعت الأقمشة القطنية والحريرية، وخيوط الغزل، وأقطان التنجيد التي يقوم بتصريفها ابن عم أبي حامد الذي ترك التنجيد إلى التجارة..

يوم الجمعة سوق القماشين، عطلتهم الأسبوعية يوم الخميس بخلاف تجار الأسواق الأخرى الذين يرتاحون الجمعة..

عادة نقلها القماشون معهم من المجدل، حيث تعطل القاعات قبل صلاة ظهر الخميس وينفل العمال ما نسجوا عن المطاوي، يحاسبونعلى أجرةعرقهم، ويتهيأون لسوق المجدل صباح الجمعة، مصطحبين أولادهم ونساءهم، يتسوقون ويتفرجون مع جموع الناس الواردة الى السوق، من القرى القريبة والبعيدة..

وفي زمن الهجرة يتوارد تجار التجزئة والناس من المخيمات، والقرى، ومدن القطاع من رفح جنوباً إلى بيت حانون شمالاً...

خالي ترك القاعة لجدي والتحق بالدكان يساعد أبي، ويدخل معمعان عالم البيع والشراء، وبانتقاله إلى السوق توقفت أعمال الصباغة والبوش في الدار...

وارتاحت النساء من العصر والنشر وتقليب شلخات الغزل على الجحوش الخشبية وجمعه في آخرالنهار قبل أن تعشش فيه رطوبة المساء ...

ارتحن من الشخط والنخط والتدخل في كل صغيرة وكبيرة، وهبدة كفه الثقيلة السمينة، التي لا تعرف الواحدة منهن متى وكيف تحط على صدغها، تطير الشرر عن عينيها، فلا تجد مناصاً إلا الهروب من وجهه، حتى لا تطالها هبدة ثانية، أو شلوطاً تكتم نشيجها وعويلها مهما كانت شدة الألم حتى لا يلاحقها بالرفس والدعس في بطنها، يفش غله فيها ...

ركنت جدتي فاطمة البوابير والبراميل وأحواض الصباغ، وأكياس القصرة (بودرة التبيـــيض) وعلب الأصباغ، وفردت عليها حصيراً قديماً ثبتت أطرافه بالحجارة الثقيلة تحفظها من عبث الصغار..

وتحول ذيب المصري من "نويل" إلى أجير باليومية، يتابع شـــؤون البـــوش والـــصباغ فـــي المصابغ، طويلاً قوي البنية بعد أن تحرر من النول، واعتدل ظهره، فوق دراجة البالون ذات القفصين..

يتنقل بين القاعة ومصبغة الزناتي تحت السدرة، ومصبغة مرزوق عند خط السكة الحديد فـــي الشجاعية، نستغل الفرصة بين مشوارين أو وقت الغداء...

نعبث بالدراجة، نحرك دواساتها فننـــزلق عنها، تقع علينـــا تخربـــشنا جروحـــاً وكـــشوطاً، وصفعات على الأقفية من أمهاتنا ومن جدي، وحتى من ذيب نفسه، فهو يعتبر الدراجـــة يـــده وقدمه، وأعز عليه من أولاده ، وخرابها يعني نقل الغزل على كتفيه، وهذا أهون من هيـــاج خالي عليه واتهامه بالتقصير..

وفي القاعة عهدوا لأحمد شمعة تعليم صابر على النول، (فاحت رائحة صابر) وتناقل الناس أخباره مع النور، وعايرونا به، وقد وصل فساده إلى حد بيع دمه والمقامرة به...

ركب صابر النول رغم اعتراض رضوان العتيق الذي تطيّر من تغيير نولــه (فالمطــارح ملازم تحدد الرزق ولكل مطرح ريق وريح ورائحة وريحه حطت مع ريح رفيق عمره أحمد شمعة ، يناكفه ويناوشه ويراهنه، يواصلان الليل بالنهار خلف الدف أيام المواسم والأعياد)

قبل أحمد شمعة الأمر على مضض، وهو الذي يطارد وقته لتوفير مهر حسنة..ويفرغ غلــه وغضبه صفعاً على ساحل صابر كلما خربش المسدية، وقطع خيوطه، جهلاً وشيطنة وعناداً على قرار العائلة ، التي ربطته بعيداً عن النور ورفاق مقهى بيع الدم..

صابر البري الحرون لا يقر ولا يهدأ يستهزئ بالعمال، ويناكفهم، يستفزهم ويــشتبك معهــم بالأيدي، يقع تحت صفعاتهم ،وركلاتهم لا يحرك ساكناً في وجود جدي الواقف له بالمرصاد ، ينسحب ويبكي خلف دف نوله..

يوم الخميس يقف كل عامل على انتاجه، يحاسب على غلته الأسبوعية، ويقف صابر أمام فشله وقلة انتاجه، ونظرات التشفي تسوطه من كل جانب..

يتخنصر، ويشد قبضته، يثني ذراعه فتقفز عضلاته :

– شوية دم من ذراعي بتجيب مصاري قد شغلكم شهر كامل.

ويزوغ من جدي الذي يقذفه بأقرب حفاية تطولها يده..

– الله يلعنك واحد داشر بتتباهى ببيع دمك يا هامل..

وهرب صابر من القاعة، ولكنه لم يبع دمه كما توقعنا، ولم يمد ذراعه الا متبرعا كما فعــل عندما تبرع لإبن ذيب المصري يوم أجريت له عملية المرارة ..

عمل عتالاً في الميناء، ومزارعاً مع المزارعين في قطاف البرتقال، اصطاد الفرّ (السمان) على شاطئ البحر، ورافق الصيادين في الأحراش يصطاد الأرانب البرية والحساسين والهداهد، طارد السلاحف والقنافذ، وباع دمها ولحمها وصفة لمرض الجر ، والقوباء ، والعقم ، ورمد العيون. .

واستقر به المقام في خرابة "أبو الروم " الذي لم يقبله ولم يطرده، وتركه مع كائنات الخرابة، يجوب معه الحواري يعلنان عن الأفلام في سينما السامر، ويقومان على خدمة حيوانات وطيور الخرابة، وعندما يضرب أبو الروم عن الدنيا وكثيراً ما يضرب، يرتدي صابر عدته ويعتمر زعبوطه، وينفخ في بوقه، ويدق جرسه ويثور في وجه كل من يسأله عن الرجل:

– روح شوفه حاطط عقله بعقل ديك الحبش..!!

يستفزه من يعرفه مشيراً إلى وشم ذراعه

– أحسن منك عامل بطل ع الفاضي

يركبه جنونه ،يحدق في الصبية الساكنة ذراعه، تتربع بين حاجبيه غزالة، يقبلها،ويلعق جلد ذراعه حتى نهاية ضفيرتها المشرعة مع الريح، تتعقد عروقه طارده دماً أزرق يتموج تحت أديم الجلد..

يتماوج فرس الوشم، ويهطل ماء عينيه.. يرشفه ملحاً..

يدفع العربة، صامت لا يعلن عن فيلم الأسبوع ، وقد بهتت أمامه بطلة الفيلم، وباخت، لا يابه لضجيج الصغار من حوله..

وفي الليل وبعد أن يعلو شخير أبو الروم يتسلل من الخرابة إلى قشعة روجينا في الشجاعية.

***

دب الخلاف بين أبي وخالي، هدد الشركة، وكاد يتسبب في طلاق أمي، حدث ذلك على اثـر دخول خالي مزاد البلدية لتأجير دكاكين سوق الأقمشة الجديدة في فراس، وما تناقلـه التجـار المجادلة عن عناد خالي أمام تجار الجملة الكبار، حتى رست عليه الدكان بأعلى إيجاره فـي السوق، (ورطوه) وانسحبوا...

أبي يستنكر الأمر، ويتخذ منه دليلاً على رعونة خالي وجهله في أمور الـسوق وألاعيـب التجار، في وقت مازال فيه عظمنا رقيقاً، ورأس مالنا لا يحتمل توسيع نشاطنا ، والدخول في منافسات معلنة ..

وخالي المعتد، يعتبر نفسه شريكاً كاملاً له كامل الحقوق ، وهو يعرف الضارة من النافعة، ولا ضرورة لاستشارة أبي في كل صغيرة وكبيرة طالما الأمر يتعلق بالمصلحة العامة، وهو يرى سوق فراس الجديد سيشكل مركزاً هاماً لتجمع تجار التجزئة، وخطأ أن نترك الـساحة لأولاد الشرفا منافسينا، الذين استأجروا لشريكهم محمود الشيخ ظلام دكاناً في السوق للبيع بالجملـة على زبائننا (ويلطشوهم) قبل أن يصعدوا إلينا في شارع فهمي بيك .

هاجت الدار وماجت، علا الصراخ وتراشقا التهم، كل يدافع عن وجهة نظره، ويسفه الآخ..

لاحت نذر المصيبة، والقطيعة أبي المعروف بطول البال، تنتفخ أوداجه، ويتناثر الزبد الجاف من فمه على شفتيه، عروق رقبته النحيلة تتلوى مثل ديدان الأرض المقتولة بعـد أن نفثـت سمومها، تقلصات وتشنجات ورجفة، ينتفض ، تنتفخ تفاحة آدم في قصبة زوره..

جدتي نفيسة وعلى غير عادتها تهجم عليه تسد فمه، تروض عناده مهلوعة من جفاف حلقـه وجحوظ عينيه.

- يلعن أبو الدكاكين واللي كان سببها.. قتلت حالك يا عبد!

تهبطت به وقعدت معه على البلاط، أسند ظهره على الحائط ، صدره يعلو ويهبط ، جدتي فاطمة شرد دم وجهها ، صفراء تحدق في عين خالي السليمة التي تدلق دموعها غضباً، وقلة حيلة، واحساساً بالصغر أمام أبي...

جدي الذي يتحاشى النظر اليهما، ينقر الأرض بأصبعه فيصدر البلاط رنيناً مكتوماً، يشي بحاله الملخوم بين حنكه أبي وحبه له وثقته برجاحة عقله، وتهور خالي على بالمجازفة، ومشاكل القاعة والعمال التي حطت عليه في الأيام الأخيرة..

يصرخ في خالي، وقد التقط صمت أبي:

- ضب لسانك يا محمود.. ابن عمك سكت، وانت مش مستحي على دمك، انتوا ناس ناكرين نعمة الله عليكم.. هذا كيف لو جارت عليكم الدنيا وقعدتوا لا أبيض ولا أسود وارتميتو في خيم الأحراش أو في المعسكرات، روحوا انضبوا وناموا والصباح رباح..

أبي يبحلق في السقف، لم يطرف له جفن، يتهدد، ويطلق زفراته، يحاور العتمة حول دوائر الضوء الباهت المنبعثة من المصباح البترولي المشبوح على الجدار..

يضرب أخماسه في أسداسه، من رعونة خالي، خوفه عليه من التهور وحزنه على نفسه الذي لا يستطيع القيام بكل الأعباء..

يلخص الأمر:

"احنا الاثنين ويا دوب قادرين على شغلنا، ومشغلين الختيار معانا في القاعة، ايش بدنا نعمل لما يصير عندنا محلين"

أمي تحاول اخراجه من سهومه وهمومه:

خليه يجرب حاله، هو مش راجل وبيفهم المصلحة ؟

– أخليه يخرب بيتنا ؟ احنا ما صدقنا ندبر حالنا في السوق، كل العيون علينا، وهو أول ما نط من جورة النول بدو يعمل شاهبندر تجار..

– يوه، وماله، يعني هم التجار طلعوا تجار، والا التجارة خلقت لناس وناس، الله يرحم أيـــام زمان يوم ما إنت بديت من جورة النول في قاعتنا.

– بتعيريني يا سفيرة عزيزة، عليّ الطلاق، ما باكتب هالدكان على اسمي طول ما أنا عايش..

كالقطة المفزوعة "تدشع" سم بطنها دفعة واحدة:

– انت مش قادر تشوفني بالعين، ما صدقت تاخذ الدكان حجة

جدتي تدخل الحجرة وتسحبها إلى العتمة في البراندة، قبل أن تقذف عنادها ، تبطحها، تـــضع كفها على فمها، وتشد شعرها تدق رأسها في بلاط الدار.

– ليش بتتدخلي بين الرجال؟!

- قلبي عليه ومش هاين عليّ، يقوم يحلف عليّ بالطلاق!! يوم ماكان بدو يتجـــوز محلفـــش عليّ..

هو من يوم نجية وعينه برة ..اذا مش ملاقي يتجوزمن البلد يجيب مصرية..ولا تلاقيه متجوز في مصر..

نجية حكاية العائلة وجرحها العميق، جدلت ظفائرها بقطانات من وبر الناقة مصبوغة بنيلـــة سوداء، خبأت بكلها ومشابكها وشبراتها الخضراء الزاهية..

قبل الهجرة بشهر، يوم جندلت رصاصات اليهود خطيبها عزات حقي..

وفي الهجرة لم تفك ضفيرة ولا لقطت شعرة حاجب، ولا عرفت لسع "العقيدة" في ليلة حنـــاء أو مناسبة فرح..

انكفأت على ماكنتها وصامت على حكاياتها أربع سنين، حتى مرض أبوها الحاج محمد حقي، سهرت عليه تمتص حرارة جسده الشائخ بكمادات الماء البارد، حتى انتظمت دقـــات صـــدره واستغرق في نوم عميق، وفي الفجر صحا، تجالد على نفسه وصلى الفجر حاضراً، ناداهـــا فافترشت سجادة الصلاة تقابله، ربت على كتفها :

– يا نجية يا بنتي، الليلة زارني في المنام.. كان قلقان عليّ وزعلان منك

حدثت نفسها وقد رمت جدائلها على ظهرها..

– معقول يا بوي..وأنا بأقول زمان ما طل عليّ في المنام

– قلقان عليك، هو في الجنة حوريته معه، وانت مجدلة شعر الحداد ودافنة حالك بالحيا. .اللي مات ما بيرجع يا بنتي، وأنا مودع ، وبدي أطمئن عليك، فكي الحداد يمكن يجيك النصيب

في الحكاية قبلت يد أبيها، توضأت وصلت الفجر، وفي الحكاية رفس الرجل الموت، وقام من فوره إلى السوق، وعادت نجية على ألسنة النساء في الدار، وكأنها تتهيأ كل يوم للزفاف..

يتحدثن عن فساتين مخبأة، وعن ضفائر تصل إلى عجيزتيها، وهمس عن أبي الذي تكـــررت سهراته في دار الحاج، وتشعبت أخباره..

طلب يدها، وافق أبوها واخوتها.. دخلت عليهم بصينية الشاي..

وحدقت في وجه أبي.. غض بصره.. انتظرت حتى شرب كوبه..فاجأته:

- عايزني أنزل ضرة على آمنة يا عبد ؟

- بالحلال والشرع يا بنت عمي، أنا شاري، ومش مقصر في آمنة وأولادها بحق الله وكل شيء قسمة ونصيب.

انت قلتها يا ابن عمي، كل شيء قسمة ونصيب، والله لو ظليت في دار أبويا لما أجدل شعر الشيب ما بأنزل بعد عزات على ضرة، لا على آمنة ولا على غيرها، نجية ما تتجوز نص راجل..

ولم يمتد وقت الحكايات في بيتنا طويلاً، حتى زارتنا نجية وأمها، وكالعادة تحلقت النساء والبنات منبهرات بنجية التركية (نسبة لجدتها لأبيها الاسطنبولية) بيضاء طويلة، عيناها الزرقاوان صافيتان مثل بحر، غمازة ذقنها ضاحكة شهية، تهدل منديلها عن شعر أصفر يسرح على ظهرها، ويستريح على ردفيها..

يقرصنها (حتى يعقب الله لهن ولبناتهن) اختلت بأمي في الغرفة، وكنت مقعياً على حلول مسائل الحساب يطاردني شبح "أم علي" في يد الأستاذ عوض الله، أمي تحوّط حولي مساحة حب وصلاة على النبي:

-خليه يحل واجبه ، مش فاضي يسمع

سألت نجية:

- وين زواقك يا آمنة ؟ نفسي أتزوق

حملت أمي المرآة الصغيرة تقابل نجية التي انهمكت في معالجة وجهها بـــالبودرة ،وطبعـــت قرصين ورديين على وجنتيها، ومرت بالأحمر على شفتيها، وكحلت جفنيها بـــابرة المكحلـــة النحاسية، ثم هدلت شعرها ومشطته..

دارت حول نفسها تتثنى

- كيف شايفاني يا آمنة؟

- حورية جاية من الجنة، يا بخت اللي تكوني من نصيبه

مسحت نجية ما وضعته من أصباغ على وجهها ،وأبقت على كحل العين فقط، لمّت شـــعرها في ضفيرتيتن ذهبيتين.. قالت:

- ليش ناسية حالك يا آمنة؟

- شغل الدار والقاعة، ما بيجي آخر النهار عليّ إلا وأنام مثل القتيلة

- الرجل ما بدو واحدة قتيلة، بدو امرأة تضوي مثل الفتيلة، تقلب ليله نهار يا هبلة، الرجـــل راحته في حضن امرأته.

وهمست في أذن أمي..
وأخذتها الى صدرها، هدهدتها وتركتها مع مرآتها وأشياء زينتها المبعثرة على الفراش..

أمي تحضنني وتبكي بحرقة أفزعتني، هربت من حضنها إلى جدتي فاطمة التي كانت تودع نجية وأمها عند باب الدار

أبي غاضب يحلف بالطلاق، ويبحلق في سقف الغرفة يرهف السمع، وجدتي تبخ فحيحاً فـــي العتمة ترد الكلام إلى حلق أمي..

يفلت حنكها همهمة منقطعة:

– من يوم نجية وهو مش قادر يشوفني بالعين، ايش شايف عند النسوان ومش شايفه عندي.. يطلقني وياخذ أولاده

– اخرسي قطع لسان، بيظل ابن عمك ستر وغطا عليك

وفي مساء اليوم الثاني زارنا الحاج محمد حقي يسبقه صوته الجهوري، وقبل أن ينتهي من صعود درجات السلم إلى الدار الفوق:

– افرشي يا آمنة أنا ضيفك اليوم

أبي ينهض مرحباً به، يأخذ بيده ،يجلسه في صدر المكان، في البراندة، يضع الوسائد خلف ظهره وتحت كوعيه، يتناول عكازه ويسنده على الجدار..

جدي وجدتي وخالي يجلسون حوله وجدتي نفيسة التي تأوي إلى فراشها مبكرة تنضم إلى المجلس..

الرجل صامت يتغلب على آثار لهاث واجهاد الطريق..

وجهه الأبيض غادرته حمرة العافية، وحطت عليه صفرة المرض، وعسف الهجرة والحاجة، وهو من كان الفرس يتعب في أراضيه، لا يعرف عدد الحصادين والغمارين في بيادره.

أمي تقدم القهوة، الحاج لا يمد يده، يتشاغل بتسريب حبات المسبحة من بين أصابعه، جدي يقطع الصمت ويوقف نقرات المسبحة:

– تفضل يا حاج

– أنا ما بأشرب قهوة في دار مش متفقة على أكل عيشها..

أبي الذي خفت رجله عن دار الحاج، واقتصرت زيارته على المواسم والأعياد والمناسبات العائلية، فالحاج هو كبير العائلة، سناً وقدراً..

وإن كانت أحواله المادية تراجعت، ومالت الدنيا عليه، وهزمه الوقت..

أبي يتأمل في الرجل، يتوقفعند أصابعه الكريمة..

– توكل على الله يا عمي

شفط الحاج رشفة من الفنجان ورده إلى الصينية ،توجه لأمي :

– القهوة بردت ،هاتي دور ثاني يا آمنة.

تهرع أمي إلى المطبخ، تنسحب النساء من المجلس، تقترب الرؤوس، ويدور الحديث همساً، تتقارب الرؤوس، ثم تتباعد، وتعتدل الظهور على الوسائد إرتياحاً واتفاقاً..

شربوا القهوة ..

وتناوشوا أحاديث وحكايات، تذكروا نهفات الدوتشي أبو الملش، ونصف كيلو أبو عيون في المحاكم، عرجوا على سيرة عوض ولغم الثوار، ومعركة خسة..

والكهف الذي وقّع عزات حقي ، وزواج نجية من ابن ربعي المدهون، وسفرها إلى الكويت، فاضت الإبتسامات وسرعان ما تحولت إلى قهقهات، نشرت مودة على الجلسة (وساق الله على أيام زمان) أفتى الحاج محمد بخبرته بأن تسجل دكان سوق فراس باسم خالي واسمي بدلاً من أبي، وبذلك يسقط يمين الطلاق عن أبي وتظل الدكان، وتحولت الفتوى إلى نكتة ،وقد أصبحت أنا شريكاً لخالي، وتم الإتفاق على أن يتفرغ خالي لدكان فراس، يساعده أحمد شمعة، ويبقى أبي في شارع فهمي بيك، ويعتبر الدكان مكتباً ومستودعاً.

انصرف الحاج محمد، وامتد السهر بخالي وأبي يتشاوران في أمور التجارة، أبـــي يخطـــط، ويوجه، وخالي يهز رأسه، وانسلت أمي إلى حجرتها، وأخرجت أدوات زينتها وعطورها ..

في الليل تمحكت بأبي :

- يعني صافي يا لبن؟

- نفسي أعرف مين اللي بلغ الحاج؟

ضحكت وتدللت:

- العصفورة الغندورة..

تمتم راغباً:

-ما أقل عقل النسوان

***

وسوق فراس للأقمشة عالم له علاقاته وأعرافه، وتقاليد تجارته وتجارة المجادلة، يرده الناس على اختلاف ألوانهم وطبقاتهم، من المدن والقرى والمخيمات..

وتعرض فيه الأقمشة وتوابعها "وكل فولة ولها كيال" ولكل زبون دكان، تجار صغار يتعاملون مع بضائع رخيصة لزبائن مستوري الحال، وتجار كبار، وأباطرة وملوك السوق هـــم تجـــار الجملة، أمثال خالي ومحمود الشيخ ظلام وتجار الأجواخ وجهازات العـــرايس مثـــل جميـــل الفالوجي بشهرته العريضة..

تاجر الجملة في السوق لا يتعامل مع زبون التجزئة، لأن ذلك يحط من قدرهم،..

ويتنافى مع أعراف السوق، وفي أيام الأسبوع يكون الرأي والراية للنساء اللواتي يتنقلن بين الدكاكين بدون مرافقة رجالهن...

أما نساء القرى والمخيمات فيأتين برفقة الرجال، ينتقين ويقررن ما يلـزم، تاركـات أمـر الفصيلة والإتفاق على الأسعار للرجال الذين يسلمون الراية في الجولات الأولى مع البائعين عندما يناغمون رجولتهم وكرمهم وأصلهم الكريم فترتخي قبضاتهم، وينشغلون باحتساء الشاي والقهوة، تاركين الأخذ والعطاء للنساء...

وتتجلى حالات التعاون في السوق، إذ يتعلق الأمر بتجهيز العروس وكسوة ذويها، فلا يقتصر الأمر على التاجر المستقبل للجهاز، فهو يعتبر محطة للبيع والشراء، وعن طريقـه تـصبح بضائع السوق كلها ملكه...

يأمر الزبون ،فتأتي البضاعة من أي دكان حتى لو طلب لبن العصفور، ويعرف كل تاجر ما أرسله للجهاز ، ويحاسب عليه آخر النهار حسب ما تقتضيه مفاهيم العمولة وهوامش الأرباح، ومراعاة شطارة البائع في توسيع رزقه حلالاً زلالاً عليه..

ويكره السوق أشد ما يكره التاجر الذي يفسد زبون جيرانه،أو يتطفل على مبيعـات غيـره، فيفرض عليه الحصار، بعدم التعاون معه، والمضاربة عليه، حتى يتأدب ،ويعود عن حـسده، فالأرزاق موزعة من رب السماء، والتجارة سر وستر، والأسعار والأعمار بيـد الله، ومـن يرزقه الله بكسوة عروس يوزع بقية زبائنه على جيرانه، ويكتفي بهبة العرس...

وللدكاكين رائحة وسمعة، تصل إلى حدود الممالك، فنجد "حسن قداس " ملـك البيـع علـى الجبالية ، يظهر ذلك الأمر من بضائعهم والأصناف التي يتداولونها ، والحاج علي أبو المعزة والمختار عطية عبيد محطات شيوخ البدو المخاتير لعلاقاتها القديمة مع بدو روبين والهزيـل في بئر السبع، ولمعرفتها بخصال البدو وعادتهم، جميل الفوالجي ملـك العـرائس وأقمـشة الموضة، ومخترع الأسماء للبضائع الجديدة فهو صاحب رمش العين، ويامّا القمر ع الباب، وزنوبا على الأقمشة الهفافة الخفيفة لزوم اليافاويات واللداويات والمـدنيات وبنـات ونـساء عائلات غزة العريقة..

رشيد عوض ملك الإكسسوارات، وكلف الخياطة، والأزرار والورود والبكل..

بالإضافة إلى الدكاكين الصغيرة في سوق الأقمشة والبسطات التي تعرض أقمشة القنابيز، والشراويل وأقمشة الفرش وكوفيات الشاش ومواد التنجيد...

وعلى مدار الأسبوع يكون البيع في محلاتنا على ما يحتاجه تجار سوق غزة من بضائع، ويكون سوقنا الأسبوعي يوم الجمعة حيث يردنا التجار من جميع الأسواق بأكياسهم الكبيرة التي تزم فوهاتها بدكة من مرس خشن، فتتحول الى بالات كبيرة أو صغيرة تدل على قوة ومكانة أصحابها، تنقل على العربات أو على ظهور العتالين إلى موقف السيارات في الساحة ، وخالي له فلسفته في اكتساح السوق، بالربح القليل والتصريف الكثير، وبسط يده للدين..

في صباح الجمعة تنقل بالات البضاعة على كارات الكتف من الدكان الفوقا في شارع فهمي بيك إلى دكان فراس، تفتح البالات على رصيف الدكان، وترتب على الأرفف ولأن السوق طارد ومطرود بصلاة الجمعة يكون الأخذ والعطاء خطفاً...

في يوم السوق آخذ مكاني عند الباب، أراقب الباعة والزبائن، وأحرس أكياسهم عندما يذهبون لصلاة الجمعة، وأساعد أحمد شمعة في ترتيب البضائع المبعثرة على الأرفف حسب أصنافها وأنواعها، وأحمد شمعة يرتاح يوم السوق من انهامات خالي له بالبلشقيك لضرورات زحمة البيع والشراء وحراسته الدكان عند الصلاة.

أحمد شمعة ترك القاعة مكرهاً على فراق حسنة، ولكنه سرعان ما اندمج مع البيع والشراء وتنازل عن قمبازه وشرواله، وتحول مثل خالي إلى القميص والبنطلون، صار خفيفاً نشيطاً في الحمل والنقل والهرولة على السلالم، والتصق بخالي أكثر، واكتشف فيه طيبته بعيداً عن الزق والنق وضيق الخلق أيام القاعة، فهو لا يعامله معاملة المعلم والأجير، يفطران سوياً، ويتغديان من طبيخ الدار...

أشد ما يكره من أيام السوق يوم الخميس، لأن من مهامه جمع دفعات الديون من الزبائن في الأسواق، يسرح مبكراً ولا يعود إلا بعد العصر، يحاسب على ماجباه من دفع ويمضي مثل المصروع إلى مخيم الشاطئ..

إلى حسنة حاملاً ما التقطه من الأسواق من فاكهة أو مكسرات، ومحارم مطرزة، وأدوات تجميل..

وفي السوق أعطت جسارة خالي وفلسفته في البيع ثمارها، زاد عدد زبائنه، واتسعت حركة الاستيرادات، وتلاحقت مشاوير أبي إلى مصر، لا يكاد يرتاح من مشواره حتى يعود ثانية، وبرغم نجاحات خالي في السوق

(لدرجة أن الزبائن لم يعودوا يرتاحون للتعامل مع أبي، وانفضوا عن الدكان الفوقا، وتحول معظم الزبائن إلى دكان فراس)

الا أنه فشل في التعامل مع موظفي الجمارك، وعجز عن تخليص البضائع بسرعة وسهولة، فترك الأمر لأبي...

(جرب الأمر أكثر من مرة، وفي كل مرة تنتهي بمشادة، أو خناقة تصل أصداؤها إلى مدير الجمرك المصري، فترتد عليه تأنيباً واتهاماً بقلة ذوق، وعدم معرفة بأصول التعامل مع الأفندية الموظفين، الذين يعتبرهم خالي حرامية وقليلي دين، ويعتبرهم أبي مساكين ومربوطين برواتبهم المحدودة التي لا تكفيهم لبساً وغندرة، أبي يقرب لخالي الأمر ويخفف من تبرمه)

- كيف لو تشوفني في مصر بأكرم الموظفين من الساعي للمدير، خرخش جيوبك بيصير الكل حبيبك ويا بخت من رزّق واسترزق..

- وكيف بيقولوا الثورة وجمال عبد الناصر قضى على الفقر ومخلاش حدا محتاج؟.

– يا راجل هو الثورة على مين بدها تكفي في مصر ؟ الناس مثل النمل ، حط كل رجال الثورة في الشركات والمؤسسات ويا دوب ملاحق .. يا ابن عمي ..شغلتنا بدها الواحد يمشي مع الوقت ويدور مع الدنيا

أبي مقتنع لدرجة الإيمان، أن ابن عمه طيب، وبائع شاطر، ولكنه ليس تاجراً، فالتجارة ليست تصريف بضاعة فقط لتاجر تجزئة مسكين محكوم بتوفير السلعة ودفتر الدين، التجارة مهارة في ادارة الأعمال، واصطياد الفرصة في الوقت المناسب...

وهكذا توزعت الاختصاصات، ترك السوق وزبائنه لخالي، والاستيراد والجمارك ومعاملات البنوك لأبي، أما القاعة فقد أصبحت نشاطاً هامشياً يقوم عليه جدي، الذي لم يعد يسيطر عليها ومتابعة شئونها، فقد ظل نول أحمد شمعة، ونول صابر عاريان من الغزل، وهجر رضوان العتيق مسديته وتحول بائعاً متجولاً بعد أن ترك أحمد شمعة القاعة وكأن روحه كانت معلقة مع صاحبه ،وخلع نول ذيب المصري، وردمت حفرته وسويت لنشر الغزل المصبوغ والممعوك لإكمال جفافه قبل توزيعه على المموسرات..

تراجعت القاعة إلى ستة أنوال جرارة ونول جدي، ونول أبي حسنة اليدويين..

ولم يعد الأطرش عيسى يقضي النهار واقفاً خلف الدوارة لقلة الشغل، بعد أن انتشرت السدايات في القاعات الكبيرة، وأصبح الأطرش عيسى يجلس على مقعدته حتى يصيبه الخدر...

ينفخ زفير صدره وسحابات دخانه العربي الحامي، ويتحرش بالعمال، ويناكف جدي حتى تطور الأمر يوماً، وطارده جدي بماسورة حديد حتى سدرة الخروبي، واختفى من القاعة أسبوعاً عاد بعدها، وهجم على رأس جدي ينهق على صدره مثل جحش رضيع، حضنه جدي، وأجلسه بجانبه ، لف له سيجارة ، وأشعلها..

شهق نفساً عميقاً ،عاتبه جدي معتذراً عن غضبه:

- والله لو ما شردت يومها من قدامي كان قتلتك

- ومين مجنون يظل قدامك وإنت هايج ؟..أعوذ بالله!

قهقه جدي، حتى غلبته الكحة، ووقفت في صدره، فجحظت عيناه

- هذا انت بتسمع وعامل علينا أطرش يا لئيم؟!

يومها فكك الأطرش عيسى الدوارة، ونقلها على كارة إلى بيته في المشاهرة، فقد اشتراها من خالي على أن يسدد ثمنها من أجرة السداة لأنوالنا..

لم يعترض جدي، وبارك الخطوة طالما هي رغبة الرجل، والأرزاق على الله، وكل صغيرمن حقه أن يكبر ويصبح معلماً وصاحب قاعة بعرقه وسهر لياليه، ولكنه هاج وماج عندما حدثه أبي بشأن تصفية القاعة وعدم تركيب مسادي جديدة على الأنوال وتسريح العمال.

- ناكلهم لحم ونرميهم عظم، وين يروحوا وكل واحد في رقبته عائلة ؟ وين الأصول يا أولاد الأصول؟ عمرها القاعة ما بتطرد أجير، الأجير هو اللي بينط من معلم لمعلم. القاعة بدها تشتغل طول ما العمال راكبة أنوالها، ورزقنا ورزقهم على الله..
هذول النويلة لولاهم ما صرتوا تجار ومستوردين

وزادت أعباء ذيب المصري بعد أن أضيف إلى مسئولياته نقل مواسير المسادي إلى دوارة الأطرش، وجلبها بعد السداة، ونقلها إلى أبو محمد كفينة(الملقى) يعبئ خيوطها في الأنيار والأمشاط..
كل حسب عدتها وعدد خيوطها ودف نولها.

***

صيف وشتاء ثم صيف، مرت على خطبة أحمد شمعة وحسنة، انتقل خلالها من القاعة إلى الدكان، وتحول من القمباز إلى البنطال والقميص، ونجا من الموت مرتين..

في ضربة المورتر شطبت الشظية الرجل الذي يحاذيه...

والثانية عندما انتفخ بطنه من علبة لحمة فاسدة اشتراها من سوق رفح، ورقد في مستشفى الحميات أسبوعين تحول إلى شبح ممصوص، عاش خلالها على عصير الليمون لنقص المحاليل في المستشفى...

جمع المهر وتكاليف العرس، حفيت قدماه لكثرة ما تردد على مخيم الشاطئ إلى حسنة المغلوبة على أمرها، أمام عناد أبيها، تعلمت الخياطة، وترددت على الست كوثر مع زريفة، أحبتها المعلمة وصادقتها، وعلمتها مالم تتعلمه من زريفة..

وساعدتها في تفصيل وخياطة جهازها وفساتينها، واختارت لها من السوق كل ما يلزمها من ملابس داخلية، وخارجية وأدوات تجميل، وصابون معطر رائحته ترد الروح ..

ونفضت حسنة عن بدنها الثوب المجدلاوي، وعرفت حلاوة الفساتين، وغطاء الوجه الرقيق الشفاف، يحجب وجهها ولا يستره عن فضاء الدنيا..

فاض صندوقها بهدايا أحمد في المطلات ، والأعياد، والمواسم حسب عادات الخطاب في فترة الخطبة، والخطبة طالت، وتناقلت الدار أخبار لقاءات العروسين في دكان جميل الفوالجي، أو عند رشيد عوض بحجة شراء حاجات الجهاز والاكسسوارات وكلف الخياطة..

يحلو الغمز واللغز خلف الدواليب.. "توتوت" حسنة في أذن زوجة خالي عند ذهابها إلى الدكان لتوصيل الغداء..

يعلو اللغط والمداعبات والمشاغبات المتطفلة على تفاصيل التفاصيل.. تصعد حسنة على احمرار وجهها، ويصهل صدرها..

- ومالـه هو غريب.. مش خطيبي وتاج راسي؟.

تتسرب الهمهمات إلى القاعة تطوعاً أو تحرشاً لجر أبي حسنة الذي يرغي ويزبـد، ويتوعـد ابنته جلابة الفضائح..

تقف جدتي بعد أن تكون قد فوعته، وشعللت صدره.

- عقد عليها على سنة الله ورسوله، يعني صارت امرأته

- ولو لما يدخل عليها، وتصير امرأته هما أحرار

- ما انت اللي راكب راسك

وتفتح القصة من جديد، ويتصلب عند شرطه غير المعقول ولا المقبول، أن تظل حسنة فـي بيته بعد زواجها..

تستهجن جدتي عناده :

- هو انت مجبور باولاد الناس؟

- اللي أوله شرط آخره رضا ، وهي الدار آخرتها لمين؟

ومن شرط الإتفاق الى أصول العادات، والحفاظ على كرامة الناس:

- هي العروس بتطلع من دار أبوها لدار جوزها ؟..انت طالع علينا بسبر (عادة) جديد، ايش يقولوا للناس وحسنة أول كناينهم وأول فرحتهم.

هل الصيف، ودق أحمد شمعة قدمه بالأرض، ودعم ظهره للحائط، وطلب حسنة، وتفجـرت مشاحناته مع أبيه وأقاربه، الذين اعتبروا سكناه في بيت زوجته نقيصة وفـضيحة، وهـددوه بالقطيعة، بل وضغطوا عليه أن يترك حسنة معلقة ويتزوج عليها..

وتدّخل جدي، وانتصر محمد فارس كفيل الشرط لأبي حسنة، وتدخل أكثر من وجه وأكثر من مختار، ورتبت الأمور بحيث تكون ليلـــة النقش،والحناء،والدخلـــة، والنقطـــة، والمباركـــة، والأسبوع في دار أهل العريس في مخيم جباليا...

ثم تقوم العروس بالافراد عند أهلها، وتبقى مع زوجها في بيت أبيها ضيفة إلـــى ماشـــاء الله واتفق الطرفان على ذلك ، وأخذ محمد فارس حمام العريس في حمام السمرة، وأخذ أبي عشاء العروسين "الضلعه" وأجل سفره يومين للقيام بالواجب، ولأن حسنة من بنات الدار فلا بـــد أن تكون صمدتها في دارنا..

ولم يعترض أحد على ذلك لاتساع براندة الدار من ناحية، وموقعها المتوســـط بـــين مخـــيم الشاطئ ومخيم جباليا.

***

تهيأت الدار للعرس، وعطلت القاعة أعمالها، ورش حوشها بالماء، وأشعل ذيب المصري كانون النار، وجهّز القهوة السادة، وتم استئجار كراسي قصيرة وأخرى عالية من السوافيري (في حارة الفواخير) لجلوس المعازيم، الرجال على الكراسي القصيرة والنساء على الكراسي العالية...

ونصب لوج العروسين وزين بالورود،وحضرت "سارة كلش" وأمها قبل الظهر للإشراف على تجهيزات الصمدة، وعند صلاة العصر توافد المعازيم، أنهت الست كوثر تلبيس العروس وزواقها، ورافقتها على اللوج، ودقت الطبلة مع بخترة العروس..

ولعلع صوت سارة يبهج النساء والصبايا يرعش أبدانهن، دلعونا

(وساق الله على أيام المجدل)

يا بنات المجدل ما تزعلنش
انتن بتغلن ومابترخصنش
وبنات برة ما بينفعنش
كل يوم والثاني بيحردونا

يرن الطبل ويحن ويعلو صوت أم سارة آمراً مهيجاً

- الله يكسر ايدها اللي ما بتزكف (تصفق)

ونزلت أخت العريس طويلة بيضاء فُرعة مُدرعة، تعرض فنونها وشبق فرحتها، صدرها ينز عرقاً، شقلت طرف ثوبها في حزامها..

ودارت ترافقها سارة:

لابسة الحبيبة وثوب البلتاجي

ورايحة تتفرج على الحجاجِ

طلبت البوسة قالت تآجي

أهلي ورايا بيطّلعونا..

هاهت جدتي، وردت عليها أمي..

وناغمتها زوجة خالي، رفعن رايات أبي وخالي وجدي وكل رجال العائلة فرداً فرداً، ولعلعت الزغاريد، ولعلع رشاش محمد فارس في حوش الدار التحتا ، وسحبت سارة أختـــي زريفـــة ،ولحقت بها أمي، وقابلتهما زوجة خالي بالشمعدان

حبيبي بسك حبيبي بسك

وحاطط في جيبه صابون إمّسّك

وطلعت الموسم سمعت حسك

صفيت في الدبكة تلعب دلعونا..

هبطت حسنة عن اللوج إلى الحلقة وسط مهاهاة النساء، والزغاريد، ودارت في الحلقة خجلـــة في البداية..

تدور حولها سارة بالطبلة، تنثر دقات خفيفة.. سريعة ثم بطيئة..

يشتد التصفيق ، تتحنجل حسنة على أطراف أصابعها.. تهدئ إيقاعها..

تتمايل على مدقات كعبيها.. تسبل جفونها.. تحممها سارة في بحر الجورة..

وعَ بحر الجورة نزلت بناتِ
أحلى من عليا وسعدى الزناتي
وكم من قتيل في الهوا مات
وكم من بنية ماتت محروما..

حسنة تخطف الأبصار..لدرجة أن جدتي نفيسة التي لا يعجبها رقص المجــدلاويات الرخــو المايع قياساً لرقص الحماميات الرجاليات شهدت لها..

– والله الملعونة رقاصة وغناجة، تقولش كانت واقفة على قشة هالفاجرة .

تحدثت الدار عن الصمدة والجلوة في دار شمعة، وأحسسنا بوحشة غياب حسنة، وبقي دولابها ساكناً صامتاً بين الدواليب، بقايا أغراضها في غرفة البنات، وأخذت الدار على عاتقهــا يــوم الأسبوع حتى لو تكلف الأمر أجرة اضافية لسارة كلش وأمها..

الوحيد الذي كان متبرماً هو خالي، فقد عاش أسبوعاً ملخبطاً ملخوماً، وحيداً بدون أجيره الذي يفهمه بالإشارة..

أما جدي فقد استضاف أبا حسنة وفرش له في الليوان الغربي طيلة أيام الأسبوع، يــصطحبه إلى مقهى السدرة يشربان الشاي ويسمعان الأخبار، يبدد وحشته لغياب حسنة حتى لا يــشت عقله...

وفي نهاية الأسبوع طلب الرجل من جدي نقل نوله إلى داره في المخيم حتى لا تبقى حــسنة وحدانية في الدار.

قامت الحرب، وسقطت غزة...

ذهل أبي، الذي عاد من مصر قبل أسبوع، تحدث باعجاب وتقديس عن جمال عبد الناصـــر، والجيش المصري حول القناة وفي سيناء، عن معدات حربية، وأسلحة تشيكية وروسية، خالف تحليلات ابو السعيد(جعفر فلفل)، المتوجس من لعبة السياسة ، والخائف على الثورة المصرية من ضربة عسكرية ساحقة..

أبي يحب المصريين، ويرى الخلاص على يد عبد الناصر، ويعتبر حصار الفالوجا قد جعله فلسطينياً لا يرضى بالضيم، ولا يهدأ طالما البلاد في قبضة اليهود الملاعين، أبي يحلم بالعودة وتوسيع تجارته ومساحة أسواقه من رفح إلى رأس الناقورة..

في القاعة والسوق يتحدث عن شركات المحلة الكبرى، ومصر البيضاء وكفر الدوار، وآلاف العمال في صناعة النسيج وعن مجمعات الحديد والصلب، وعن سد سيقام في الصعيد، ومياه تكفي لري سيناء الذهبية، وكهرباء تصل إلى غزة..

أبي يؤمن بالرجال الأنبياء والأتباع المخلصين..

أسألـــــه:

- هل المجـــدل بعيدة؟

- نصف ساعة بالسيارة ؟ والله بعد الحرب لأظل أجري على نفس واحد، ما يردني غير هواء العلية.. أنعس وأنام ع البحري..

جدي الذي قطع الاسكندرون، ومر بالأكراد على الأقدام مع فلول الأتراك، ثم جـــاب الـــبلاد طولاً وعرضاً زياتاً، وبائع أقمشة، سريحاً من حوران سوريا إلى بلبيس مصر..

لا يطمئن للأيام والحكام، تطارده أشباح اللصوص، وقطاع الطرق، والموت في الخنادق، والجوع.. من المجدل يهرب والطائرات تقصف والبحر يقصف..

موت يحرق الزرع والضرع ،جدي يكبح جماح أبي:

- هو مين عبد الناصر يحط راسه براس الانجليز والفرنساوية؟

بور سعيد تُقصف من البوارج والطائرات..

عدوان ثلاثي، المصريون ينسحبون من سيناء، ويغرقون السفن في القناة..

يدمرون كوبري الفردان، وجسور القوات المسلحة. موت، وذكريات موت في المجدل، لحم مدفون ولحم يتناثر، وعائلات كاملة تختفي تحت اشجار التوت والجميز رحيل ومتاهة..

أيام تدور، نحط الرحال في الدار العالية عند كتف تلة صلاح الدين، هدفاً واضحاً للطائرات..

نهبط من دارنا، نترك أنوالنا ومالنا، نختبئ مع أهل الحارة في وكر (أبو العينين) في بطن التل ويبقى جدي في الدار:

- يا ختيار الدار عالية والضرب بيطولها.. والفشك الطايش كثير

- المقدر مكتوب، خذوا الأولاد والنسوان وروحوا الوكر..

جدتي معه، كتلة خوف وموت مؤجل، نسحب في أذيالنا جدتي نفيسة..

نساء وأولاد ورضع افترشنا أرضية الوكر مع رطوبة تشرين، في الوكر حجرات ودهاليز وممرات لجأ اليها الناس في حرب الأتراك...

ثم استغلت صوامع للتخزين، وسترت اللاجئين في الهجرة، تضيئ الوكر سراجات بالكاد تبدد العتمة، فوهة الوكر مستورة بالبطانيات السوداء، تواجه ريح الليل وتمتص بقايا شعاعات الأسرجة، الطائرات تحوم طوال الليل على ارتفاعات منخفضة..

ندفن رؤوسنا في صدور أمهاتنا.. أصوات الرجال تصدرفحيحاً لاعنا غاضباً مذعوراً

- أسكتوا الأولاد بلاش يعرفوا الوكر ويضربوه

في حاكورة أبو العنين، وفي غرف البيت الضيقة، يتلفع الرجال بالبطانيات، يتكومون حول الراديو، وقد شبحوا انتيله على شجرة اللوز العارية...

مارشات عسكرية خافتة، وأغانٍ وطنية يبثها صوت العرب، بيانات عن بوارج وطائرات وقتال بالسلاح الأبيض في الشوارع، محطة الشرق الأدنى، واذاعة لندن تتقلان أخبار الحرب في سيناء، وأحاديث عن دبابات ومدافع تدك المنطار وتمسح الدشم والمواقع، صليات الرشاشات في الحواري الشرقية..

مطر يهطل طوال الليل وعند الفجر نرهف السمع، هرولة الناس إلى الغرب باتجاه البحر، يلهثون وينثرون أخبار سقوط المنطار، وانسحاب الجيش وهروب الضباط..

عن قيادات تخفت بالقنابيز وأثواب النساء ..هياج حزين واجف.. قدر يخبئ أشباح الموت.. ترقب وحذر وصراخ الأطفال..

رتل سيارات تسبقه قعقعته واشارات الوايلس، يهبط من حارة بني عامر إلى ساحة الشوا.. لغة عرجاء وخشخشة ميكروفون وزخات رصاص تثقب السماء ..

تنقر الجدارن على طول الشارع..

صمت يقطعه هدير محركات السيارات الثقيلة والمجنــزرات.. وصوت نسائي حاد..

نــداء.. نــداء.. نداء
إلى أهالي غـــزة
بأمر من الحاكم العسكري العام لمدينة غزة، "ساجان الوف حاييم غئون"، على جميع السكان رفع الرايات البيضاء، والتزام الهدوء داخل البيوت.. وسنطلق النار علىكل شخص يوجــد خارج بيته" .

يتحرك الرتل باتجاه سدرة الخروبي.. يمسح فضاء بيارة أبو راس رصاصاً.. أبـــي يتــصنت على الاذاعة المصرية

دع سمائي فسمائي محرقة
دع مياهي فمياهي مغرقة

رجل يهجم على الراديو يغلقه، ويقطع سلك الأنتيل، يلفه ويرميه بعيداً في الحاكورة :

– لا بقيت سماء ولا بقيت أرض وقاعدين بيغنوا!!

وتجمع الرجال، رؤوس مطأطأة، نختبئ في أحضانهم مثل ديدان الأرض البردانة، خيّم الليل، وانتهت الحرب وسلم الحاكم المصري، واستلم الحاكم الاسرائيلي،..

من الوكر تسللنا إلى البيت قفزاً عن الأسوار من بيت لبيت، كان جدي قد نبش جورة نــول ذيب المصري وتهيأ، فتح أبي صندوقه، وعاد بالبندقية الألمانية وأمشاط الرصاص ...

لفوها بقماش أبيض وربطوها بخيوط خضراء قوية، جدلوها من حرير المقاطع، دفنوها في جورة النول، وفردوا عليها الحصيرة وفرشة جدي، فقد قرر النوم في القاعة..

عند الفجر هطل مطر غزير، لم يسبقه شرر برق ولا هدير رعد، ولم يحجب صوت النداء المسرسع..

إلى جميع سكان حارة الدرج وحارة التفاح

((بأمر من الحاكم العسكري لمدينة غزة "ساجان ألوف حاييم غئون" ، على جميع الرجال من عمر 16 إلى60 سنة ، الخروج من البيوت رافعي الأيدي على الرؤوس ، والتجمع في ساحة مدرسة صلاح الدين.. ومن يخالف الأمر ستطلق قوات جيش الدفاع الإسرائيلي عليه النار)).

في القاعة حول جدي تكومنا، نصغي لصرير الريح ووقع الأقدام على الأرض اللزقة في الحارة، الحارة تغوص في الصمت، يقطعه زخ المطر ونقر حبيبات البرد على السواطيح الزنكية..

الأفق ملبد بغيوم سوداء حجبت شمس النهار شرقاً قبل أن تولد ، صار الوقت ضحى طقطقة على باب بيت الجيران، ودق عنيف على باب دارنا..

أعقبه زخات الرصاص صليات متصلة في السماء، باب الدار يفتح على مصراعيه، الجنود يملأون حوش القاعة، يصعدون إلى الدار الفوقا، وينتشرون ، جدي يقف عند باب القاعة، بحذر يدخلون علينا، مجندة تصوب بندقيتها باتجاهنا، فيما الجنود بين الأنوال وأكوام الغزل والقماش..

كبيرهم يسأل جدي:

- ما في رجال هون؟

- طلعوا إلى المدرسة مثل ما طلبتم

- وين السلاح يا ختيار؟

- الدار قدامكم فتشوها..

تراطنوا همساً، وانسحبوا من القاعة والحوش، وتراطنوا في الحو، فهبط الجنود من الدار الفوقا، جندي شاب يلوح للمجندة بربابة خالي..

خردقوا غيوم السماء بالرصاص وخرجوا .. حول جدي في القاعة تكومنا، أمي وزوجة خالي صعدتا إلى الدار الفوقا، أغلقتا ما استجاب من أبواب الحجرات (قلبوا الدار عاليها واطيها)

وفي المساء قبل زحف الليل بقليل، رجع الرجال، وتحدثوا عن معتقلين وجنود وضباط مصريين حمّلوهم في الشاحنات والمجنزرات، وتحدثوا عن ضرب وشج رؤوس وعن دم شخب ونفر من العروق..

وعندما سمح بالتجول ساعات بعد أيام، سطا الناس من كل الحارات على مستودعات الوكالة في حارة بني عامر، وعلى مستودعات تموين الجيش عند الإمام الشافعي، نهبوا الدقيق والسكر والفول والعدس، حملوا الزيوت والتمور والمعلبات..

حتى ألواح الخشب وقضبان الحديد وقطع الصاج نهبوها من ورش تعليم الصناعة في مدارس الوكالة مع عددها من مناشير وشواكيش وملازم نزعت عن الطاولات..

أولاد يحملون مساطر الرسم الهندسي وأوراق الرسم البيضاء، وعلب الطباشير..

جنود الإحتلال في الطرقات وعند الزوايا لا يأبهون بما يجري، بين الحين والآخر يصرخون على شاب أو رجل يوقفونه ويدفعونه في سياراتهم، ولا أحد يعرف مصيره، منهوباته على الأرض تدل عليه..

وفي ساعات منع التجول تتجول ريح تتشرين في الأزقة والبيوت، تحمل أخباراً عن احتلال قد يطول، وعن انسحاب متوقع، وعن موقف أمريكي وروسي..

وعن نفاد الوقود والدقيق من المدينة، تتمدد ساعات التجول، وتتسع خطوات الناس عن بؤر بيوتهم ومدارات سكناهم، بعض الطمأنينة في وقت التجول التي تحددت من السادسة صباحاً وحتى الرابعة مساء، الناس مثل طوابير النمل إلى الأحراش طواري وبلطات ومناشير وفؤوس..

مناسيس وأزاميل، قطعت الغابة حطباً ووقوداً لوحقت الأشجار حتى الجذوع وعروق الجذور وجدت من يتتبعها ويعود بها حطباً رديئاً معروفاً بكثافة دخانه وتفحم جمره.

في الليل نتدفأ على نار حطب أخضر لم يطرد ماءه بعد، دخانه اللزج يغير طعم الهواء، ويشكل المكان، ويعشش في ملابسنا قبل أن تشويه النار وتعرف مسالكها فيه، أحاديث وحكايات عن حروب انتهت،وحروب آتية ، عن تراجع وعن موت وجوع واعتقال وتعذيب، وجنود مصريين يتجمعون في مستشفى الشفاء مرضى ومصابين ومقطوعين...

وعن لجان اغاثة تجمع مساعدات من الموسورين والقادرين، والشيخ هاشم الخزندار التاجر والفقيه والشيخ خلوصي بسيسو القاضي، وغيرهم أخذوا المهمة على عاتقهم..

أبي يتبرع ببعض القماش، وزريفة ولطيفة خلف الماكينة تحيكان الجلابيب والشراويل والملابس الداخلية لأصحاب القسمة والنصيب...

المدينة قلقة حذرة بعد أن اجتمع الحاكم الجديد بالأعيان والتجار ورجال الـــدين، وطمـــأنهم، وطلب منهم العودة إلى الأسواق والحقول والحياة العادية، إلى المدارس تقاطرنا...

وتسربنا إلى فصولنا بعد جرس خجول واهن، لم نصطف في طابور ولم نحيّ العلـــم، ولـــم يتقدمنا صلاح اللبابيدي، الذي قتل في بيته أمام زوجته الشابة الجميلة وأطفاله ،ولم يعد عودة إلى المدرسة، وعرفنا أن أمه رجعت به إلى البيت عندما رأت دورية الجنـــود عنـــد بـــاب المدرسة..

لم نعد إلى نشيد الكرمل المعطر، والبرتقال المزهر..

في المدرسة صار الحديث همساً، والأستاذ عوض الله لا يحمل خيزرانته، لا يعاقبنـــا علـــى واجب لم نؤده، ولا على مسألة أخطأنا في حلها ..

حصص الدراسة قلصت، واشتقنا لحصص الرسم والرياضة البدنية وطابور الكشافة، وفي يوم عاد أبي مهموماً فقد اعتقل جعفر فلفل وابنه سعيد، وتحدث عن تعذيب، وتغطيس في المـــاء البارد، عن تقليع الأظافر بالكماشة، وعن نفخ الإبن أمام أبيه مثل الذبيحة قبل سلخها ..

جدي الذي يخاف من الحيطان التي لها آذان يهون الأمر ويقطع على أبي الاسترسال أمامنا..

يتمتم (مطرح ماتأمن خاف) يرتفع صوته منبهاً

– ايش عرّفك هو في حدا طلع من السجن؟!

– هيك بيقولوا ، ماهو تعذيب اليهود معروف، يعني بدهم يطعمـــوهم ملـــبس وحلقـــوم، الله يصبرهم!

وسألت عن محمد فارس، الذي لم يعد يزورنا، أخذني أبي إلى حضنه ملسوعاً فزعاً:

- ليش بتسأل عنه؟

- علشان يطخ اليهود ويطردهم

ساد صمت واجم..

لا أخبار عن محمد فارس، قيل أنه قتل في تلة المنطار، واختفت جثته تحت الردم، وقيل أنه ركب البحر باتجاه لبنان...

وقيل أن اليهود اعتقلوه في جباليا يوم جمعوا الرجال في الساحة، بعد أن تعرف عليــه رأس الخيش، وصابر يحلف بروح أبيه أنه رآه مع ضابط مصري كبير يختفيان في حارة الصبرة.

الحياة في غزة محكومة بمواعيد منع التجول، تغلق الأبواب على الناس، وتــصبح الــشوارع ملاعب لدوريات الجيش...

نرهف السمع لهدير الآليات والسيارات العسكرية، عندما تأخذ مواقعها في ساحة الشوا، توزع جنود الدوريات الراجلة إلى الحواري والشوراع، تتعرف على اتجاهات الدوريات من خشخشة أجهزة اللاسلكي، ولغة متقطعة تتقاذفها أجهزة الإرسال والإستقبال، حارتنا المحصورة بــين ساحة الشوا وسدرة الخروبي،تطل على فضاء بيارة (أبو راس)..

تمشطها دورية راجلة تحت حماية جيب يذرع الشارع جيئة وذهابا..

نتلصص على أفراد الدورية من ثقوب الأبواب، ونتوقع صليات الرصاص من جندي مذعور، جنود الدوريات يطلقون النار باتجاه البيارة ،على كل شيء يتحرك ..

وفي النهار نسمع حكايات الرصاص الطائش في حارة التفاح والمشاهرة وبركة قمر والمحطة، وفي دارنا نستطلع أفق الحارات من البراندة..

تنبسط البيارة خضراء تغلفها غيوم كانون الهابطة، سقف رمادي يبشر بمطر لا ينقطع..

نفرح اذا هطل المطر في ساعات منع التجول..

فالجنود يلجأون إلى عروق الجدران وسياج البيارة، وسرعان ما تلتقطهم سيارة الجيب، وتذهب بهم بعيداً..

نخرج من مرابضنا ونصل ما كان قد انقطع من لعبة المسكوبية، والبنانير، وحاكم وجلاد، نتجرأ بعد طول استطلاع، نقفز إلى البيارة، من ثغرات في السياج أعدت سلفاً خلال النهار..

نعود برأس خس ، أو درنة فجل، أو بعض بصل أخضر.. بعض الكبار رجالاً ونساءً يتسللون معنا ليعودوا بكرنبة ، أو رأس ملفوف،..

طبخة يوم واحد وجبة عشاء متأخر.. حول الكوانين يدور حديث الحروب، وعسر الوقت، وقلة الشغل والعمل..

ونهارات مصادرة بين حدى منع التجول، ورخص يفرضها قانون الحاجة والفاقة والإحتلال.. جدي يبرر الأمر ويلخصه :

(من يأكل عليه أن يطعم، وأرض الله لعباد الله، والسرقة للأكل مش حرام.. السرقة للبيع تستأهل قطع اليد واللسان")

ناطور البيارة يدور حول السياج يسد الثغرات بأكوام من هيش يدل على الثغرة ولا يغلقها، لا يتتبع آثار الأقدام أو بقايا طين الأرض الحمرا تصل ما بين السياج وعتبات البيوت يتعامى ويمسح الآثار، ويموه الخطى تحسباً من دورية جيش أو جولات صاحب الأرض التفقدية.

ودعنا الكوانين، قطعنا آذار، ودخلنا بوابة شباط بمزاجه الأرعن وبقايا غيومه وأمطاره تعايشنا مع منع التجول، وحفظنا مواقيت الدوريات الراجلة والمحمولة، نمتلك الشارع بالتناوب مع العسكر..

حتى كان يومٌ اشتد فيه الريح والمطر، وتجاوز منع التجول مدار النهار إلى حواف الليل.. من البراندة نهلل إلى حبيبات برد تنقر بلاط الدار تتقافز مثل حبيبات الرز المقشور المغسول.. نتطلع الى الدنيا تحت أبخرة السحابات المعلقة على هامات الزيتون شرقي البيارة، تموه علينا ملامح الحارات البعيدة..

صابر يعبر الدار فجأة أبكم يشير إلى البيارة ..

ثلاثة أشباح يركضون باتجاه الشرق..برق يفجر السماء، ينثر خيوطاً من نار تشقق زرقة السماء فوق حاجز الغيوم..

يهبط رعد زاعق يرج سكون الدنيا.. تمضي الأشباح إلى غابة الزيتون.. صابر يهمس في أذن خالي:

– طخوا العرايشي!

– وين؟

– في قهوة الساحة

انسحاب اليهود من سيناء وغزة، وقوات طوارئ دولية، أخبار مصر في الراديو تهلل لانتصارات، عدوان ثلاثي خائب وفاشل، اذاعة الشرق الأدنى، تعلن عن انسحاب وتبادل اسرى ، ونزع سلاح..

رؤوسنا الصغيرة لا تستوعب غير انسحاب اليهود من غزة ..وانتصار عبد الناصر..

ولا تفسر كيف انتصر عبد الناصر، فيما الضباط والجنود المصريون قتلوا أو وقعوا في الأسر..

وآمنت أن عبد الناصر (كما يقول أبي) رجل ، يختلف عن كل البشر، ينتصر..

وأخذت أروّض الحكايات في عقلي، وغمرت الدنيا أصوا ت الرصاص حتى مطلع الفجر.

وأطلقت المآذن آذان الفجر، وقذفت الجوامع المصلين إلى الحواري..

تهاليل وزغاريد، ورصاص مبتهج..

ما الذي جرى وما الخبر؟ أم علي الجرجاوي في بطن تلة صلاح الدين تلهج بين التصديق والرجاء..

- اليهود انسحبوا..!؟

الناس تستقبل الناس في الأزقة والحواري ، الجموع صاعدة باتجاه الساحة، مهرولة نحو محطة القطار..

وشمس عذراء تجاوزت السحب وسبقت المطر

(جدي يقول اذا سبقت الشمس هطول المطر يكون النهار صحواً أما اذا ضخت الغيوم أحمالها قبل الشروق تبقى الشمس على خجلها ولا تصعد إلى قبة السماء)

واليوم تبكر شمس آذار نحو دروبها تستقبل هتافات الناس ..

والناس حول سيارات قوات الطوارئ الدولية..

يستقبلون جنوداً زرق، من أركان الدنيا، يرطنون لغات غريبة عجيبة..كنديون وبرازيليــون، ويوغسلاف وهنود، غزة تستقبلهم بعناقيد البرتقال ورؤوس الخس، وحتى عيدان قصب بركة قمر، يطوقون أعناقهم بأغصان الزيتون وأكاليل الفل والقرنفل، يرشون رؤوسهم بالملح..

الجنود يوزعون الإبتسامات، يراطنون الرجال والشباب بانجليزية مكسرة، يخبــرون عــن هويتهم وبلادهم البعيدة ..

من الشجاعية تحركت المظاهرة سالكة شارع عمر المختار..

هتاف يرج الأبدان.. (غزة غزة عربية) (لا شرقية ولا غربية بدنا ادارة عربية)

أبي قابض على ذراعي، يهتف، بين الهتاف والهتاف ويدخل في نقاش غاضب حول تــدويل القطاع..

رغبة جامحة بعودة الإدارة المصرية ..

هياج واندفاع وهرولة نحو الساحة (ميدان فلسطين)، المظاهرة تنتظر روافدها من الحواري والمخيمات..
وتهلل للسجناء الذين خرجوا لتوهم من سجن السرايا، حملوا على الأكتاف..

فاختاروا المظاهرة على العودة إلى البيوت...

تتحرك المظاهرة باتجاه مبنى سراي الحكومة، حيث تمركزت قيادة قوات الطوارئ، الجنــود الزرق يحيطون بالمبنى ويرفعون على ساريته علم الأمم المتحدة، أزرق يرفرف في السماء، والجنود يتصدون للناس الذين حاولوا اقتحام المبنى..

شاب يتسلق شجرة الكينياء في ساحة السرايا..

يرفع العلم الفلسطيني ..

يرفرف العلم...

ويسقط الشاب برصاصة جندي أزرق، يصل الشاب إلى الأرض..

ويبقى العلم فوق هامة الشجرة..

رصاص يثقب السماء وعلم يلف جثة الشهيد (محمد المشرف) ومسيرة هائجة مائجة تمضي به إلى مقبرة الشهداء عند بوابة المدينة..

زخات المطر تهطل، وشمس النهارتوارت خلف غيمة داكنة فسيحة باتساع سماء غزة.

***

رقصت غزة...

وعادت الإدارة المصرية...

عاد الحاكم الإداري العام، ورجع محمد فارس بزوجة مصرية جميلة، وأضفنا إلى حكايات الدار حكايات الضرائر في بيت الفدائي، الذي يحتكم الى كفه الغليظة في فض النزاعات بين زوجتيه..

زوجته الأولى تحرد عند أهلها، ويقوم جدي بردها الى بيتها، ونعمات المصرية الغريبة يفيض بها الكيل فتحرد عندنا، فتشد الدار نساءً ورجالاً من ازرها ظالمة أو مظلومة، فهي الصغيرة الجميلة الغريبة عن ديارها ، وأبي يهدد زوجها بارجاعها إلى مصر في أول سفرة له، والسفرات كثيرة متلاحقة..

في الدار وجدت النساء ما يثرثرن حوله، وما يفتشن عنه، بعد أن تقلصت الأعمال في القاعة، وتعرت معظم الأنوال من غزلها وخيوطها، أحد أولاد ذيب المصري ترك القاعة ليعمل حارساً في كامب القوات الكندية، وسحب معه رمضان الأفندي فراشاً ومراسلاً أهله إلى ذلك ما ظل معه من كلمات انجليزية تعود إلى عمله في "كمبات " الإنجليز في يبنا..

اقتصرت القاعة على أربعة أنوال جرارة ونول جدي..

تزودهم أمي وزوجة خالي بما يكفي من مواسير خلال ساعة خلف الدواليب..

ذيب المصري وجدي، يجوبان الشجاعية ومخيم الشاطئ وجباليا بحثاً عن عمال، والعمال نصبوا أنوالهم في بيوتهم تحت العرائش في أحواش الدور أو في توسيعة أقيمت للنول خارج الدار، يعملون لحسابهم أو لحساب المعلمين..

جدي يعود منهكاً ينفخ ويتساءل:

هل تغيرت أحوال الصنعة وتبدلت قوانين القاعات؟ يرى في التبدلات ايذاناً بانقراض وصايا النبي شيت رب الصنعة..

ويؤمن بأن سيدنا النبي غاضب على أهل المجدل، لأنه زرع الأنوال فيها فنصبوها في غير مواطنها..

خالي يعاتبه:

- أي هي الأنوال شجر تزرع وتقلع؟

- النول شجرة.. كل نول يستر صاحبه، ويفرع نولاً ثانياً وثالثاً.. مثل الشجر يتفرع وتطرح ثمراً وبذوراً تعطي شجراً.. كل الأنوال اللي انت شايفها أصلها نول واحد..

- انت مصدق ان النبي شيت جاب النول، هو كان فاضي يهدي الناس ولا يشتغل على النول..؟!

من القاعة اختفت أصناف طردتها المنافسة مع الأقمشة المصرية المستوردة، واعتصمت أصناف بأصولها ولم تتأثر..

اقتصر الأمر على أقمشة الفرش والمراييل والحواشي (أقمشة القنابيز) والمقاطع (الثوب المجدلاوي) والمناديل..

في الأماسي يدور النقاش حول تفكيك الأنوال العارية وبيعها وتقليص أعمال القاعة على ما هو موجود، تنتصر النساء للفكرة بعد أن ذقن حلاوة الراحة وبذرن عدداً اضافياً من الأولاد والبنات، لكن أحداً لم يجرؤ على طرح فكرة تصفية الأنوال نهائياً رغم أن الأحوال تمضي نحو ذلك، فخالي مشغول بالسوق ومنافسة تجار الجملة، وأبي تأخذه مصر ذهاباً وإياباً..

حتى كان يوم فاجأنا جدي، وقد اشترى داراً في مخيم الشاطئ، وقرر الانتقال اليها مع عائلة خالي، وتمترس خلف قراره :

- لوقتيش بدنا نظل ندفع أيجار للدور؟!

- يعني هي دور المخيم ملك مطوب يا ختيار؟!

- مثل الناس ولا باس..ماله المخيم ..على الأقل كل الناس في الهوا سوا

***

دار جدي في طرف المخيم تطل على الأحراش..

بعيدة عن الشارع العريض وصفّ المراحيض العامة، وقريبة من حوض الطلمبة الشرقية التي حفرتها الوكالة حديثاً..

خالي لم يسكن الدار إلا بعد اجراء التصليحات اللازمة، صب أرضية الحجرات والبرندة بالاسمنت، وأقام عريشة من الزينكو أمام الحجرات ، وبنى مرحاضاً ومطبخاً في طرف الحوش ، أقامت جدتي خلفه فرن الطابون..

حوش الدار الرملي زرع بالنعنع، وشجرة ليمون وزيتونة وبعض القرنفل والورد، بعد أن خلطت تربته بالطين من المطينة التي فتحت في أرض البلاخية عند شاطئ البحر، والحقت القاعة بالدار في توسيعة من أرض المخيم تجاورها غرفة المقعد (المضافة) التي فرشتها جدتي بحصيرة قديمة فردت عليها الوسائد والحشايا ..

يوم زيارة دار جدي يوم عيد، وتواصل واكتشافات وحكايات نتزود بها طوال أيام الأسبوع تصطحبنا أمي عصر الخميس، ونعود مساء الجمعة...

ننطلق في الأحراش (الغابة) مع هيجر وأولاد الجيران، نفتش عن زغاليل العصافير في الأعشاش، وعن صغار الكلاب والقطط، نعود ببيض الشنار الملون، ونعثر على سلاحف صغيرة، نطارد السحالي، وتفلت منا الأرانب البرية يرشقنا النيص بسهامه الإبرية..

نلم بعض "الكعوب" والحماصيص الأخضر وأزهار البابونج..

نتعلم من الصبيان في المخيم كيف ننصب أفخاخاً للأرانب البرية والعصافير ..

نطارد مع (ابي حسام العوجا) الذي يصطاد الحمام البري ،والخضير، والهداهد والشنار (بالجفت)..

نرافق زوجة خالي إلى الطلمبة تملأ أباريق الدار والقدور والطناجر الصغيرة، نفرغها في مزيرة المقعد والأزيار الاحتياطية في حوش الدار، نروي مزروعات الحوش، نحتطب لوجاق القهوة، ونجمع الأوراق الجافة وعسف الأغصان الميتة وقوداً للصاج وفرن الطابون، نتجمع حول الطابون عند الخبيز نتزود بأقراص الخبز مع الزيت والزعتر أو مع البيض، نتشابك ونتصارع اذا تعلق الأمر بشواء العصافير التي نعثر عليها في الأعشاش..

المخيم عالم آخر وحكايات أخرى، سوق المخيم بسيط وصغير ويخلو من الفاكهة، المشي بالأحذية حالة استثنائية عند الصغار، القباقيب أحذية معتمدة لا تسمع نقراتها على رمال الأزقة.

وفي المخيم نتعرف على تقسيمات جديدة وحوار جديدة..

حارة المجادلة وحارة الحمامية، وحارة اليافاوية، وحارة الجوارنة على الشاطئ مباشرة، إلى البحر نمضي مع الفجر..

نتقافز بين الصيادين، نخطف ما تيسر من أسماك السردين...

ونفتش في (عقاره) جرافات الصيد، وننتظر عقارب الماء حتى تهمد، ونـــأمن مـــن لـــسع شفراتها السوداء التي تشق جلد أكفنا وتفرع فيها سماً حارقاً..

وعند العصر نمضي في ذيول أمهاتنا نغطس في الماء، ونلتقط من تجاويف الـــصخور مـــا تيسر من أسماك الداقور السوداء اللزجة نعود بها حية تلعب في الماء داخل صـــفائح تنـــك، ننـــزع أبو جلمبو من مراقده، نشعل النار على الشاطئ نأكله مملحاً مع خبز محمص وبصل أخضر وفلفل أحمر مخروط..

وفي الليل أجمع فناجين القهوة السادة من أيدي رواد المقعد..

أسأل جدي:

– ليش تركت الدار الكبيرة وسكنت المخيم؟

– علشان الناس في المخيم مثل بعض ،كلهم مهاجرين

يضحك ويضمني إلى صدره..

يحدق في وجهي ويهمس:

– علشان نرجع ع البلاد عن طريق البحر.. اللي يمشي على الشط بيصل ولا يتـــوه.. تدلـــه ريحة الشيخ عوض إلى المجدل

–وليش أبويا مش راضي يشتري دار في المخيم؟

وبعد أقل من عام استلمنا دارنا في مخيم الوحدة التابع لمخيم الشاطيء، والذي عرف وما زال بمخيم المجادلة..

وعشنا حياة أخرى..

ملتقى الصداقة الثقافي

مكتبة الصداقة الإلكترونية

http://www.alsdaqa.com/vb

http://www.alsdaqa.com/vb/forumdisplay.php?f=94